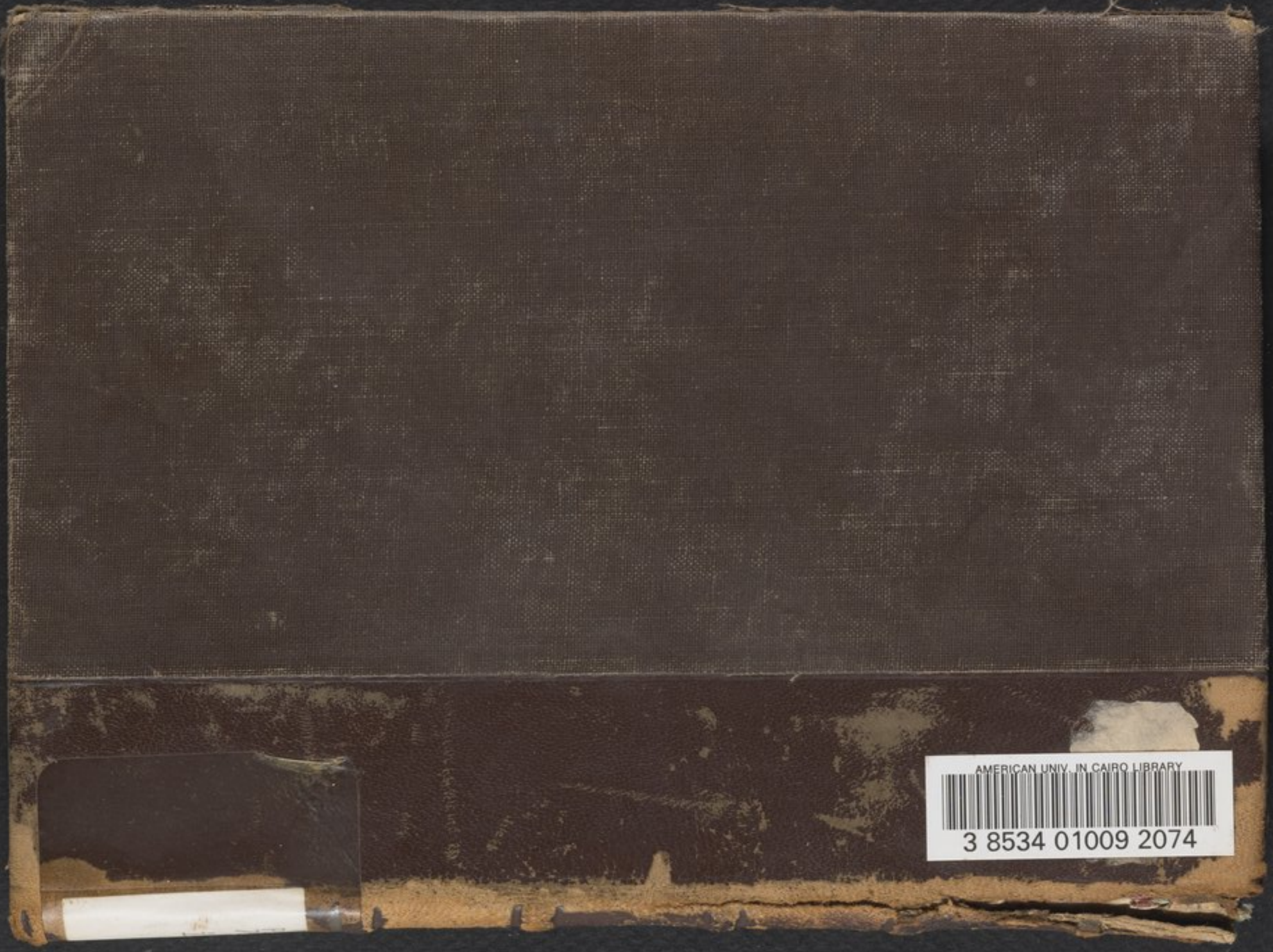

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01009 2074

86-B3192
pnt Apr 2006

Library of
The American University
at Cairo

AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
DISTRICT OF COLUMBIA
1919.

SERVICE
CHARACTER

مختارات المنفلوطي

PJ
7601
M3
1954

جمعه المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي ١٧٢
مصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعة

مطبعة السعادة بمصر

١٣٧٣ — ١٩٥٤

OCLC
318939174
892.72
M313S
c.2
B12465409
13822482
٨١٠,٨
منفلوطی. محت

هـــدية الـــكتاب

إلى سعادة الأستاذ السيد على يوسف

كان للانشاء فى مصر ديوان أنت رئيسه والكتاب جميعاً عماله . فأمّا وقد أعتزلته فائذن لأحد عمال ديوانك أن يقدّم إليك كتابه هذا تذكارَ وداعٍ تحفظ له ماضى إخلاصه لك ويحفظ لك فيه سالف أياديك عنده ، وسـلام على عهدك الزاهر وتاريخك الطاهر ؟

مصطفى لطفى المنفلوطى

تحريراً فى ١٥ مارس سنة ١٩١٢

36325

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله على آلائه وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وصحبه وآله .

وبعد فقد عرفتُ حاجتك يابنى أعزك الله إلى كتاب يجمع لك من جيد منظوم العرب ومنثورها فى حاضرها وماضيها وفى كل فن وغرض من فنونها وأغراضها ماتستعين باستظهاره أو ترديد النظر فيه على تهذيب بيانك وتقويم لسانك وعلمت أنك لن تستطيع أن تجد طلبتك هذه فى مختار من مختارات المتقدمين . ولا فى مجموعة من مجموعات المعاصرين أما المتقدمون فهم بين نحوى لا يعجبه من الكلام إلا مايجد فيه مَذاق شواهد العلم الذى يعالجه ولا تسكن نفسه إلا إلى البيت الذى فيه عقدة يتفصح بحلها أو خطأة يتفكه بتأويلها أو نادرة من نوادر الإعراب والبناء يؤيد بها رأياً أو يساجل بها خصما . ولغوىّ مولَع بما يشتمل على الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها فلا يكاد يَعدل بشعر الجاهلية وما جرى مجراه شعرَ طبقة من الطبقات ولا يرى غير كلامهم كلاما ولا مذهبهم مذهبا . وعصر الجاهلية على ما أعتقد هو عصر الطفولة الشعرية أى أن الشعر كان فيه بسيطاً ساذجا لم يهذبه العلم ولم تصْتَعْه

الحضارة ولم تتصل به أشعة الخيال فتنير ظلمته . فهو وإن كان أصدق الشعر وأجدره أن يكون صفة صحيحة لتاريخ عصره ولكن قلما يستفيد شاعر الحضارة من أكثره أكثرَ من المادة اللغوية. وما الفرق بين شعر الجاهلية وشعر طبقة المحدثين والمولدين من بعده إلا كالفرق فى الموسيقى بين نغمات الحداة فى أعقاب الإبل ونغمات الضاربين على أوتار الأعواد والبرابط فى عصر الحضارة الإسلامية . وعندى أن للنزعة التاريخية سلطانا على نفوس المولعين بالشعر الجاهلى أكثر من النزعة الفنية ، فمثلهم كمثل المولعين بالعاديات الذين يؤثرون حجر الفرانيت على حجر الماس ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم منظر برج ايفل . وراويةِ همّه فى حياته أن يدور بيده ليله ونهاره فى زوايا رأسه علّه يعثر ببيت لا يعرفه غيره منسوباً إلى قائل لا يعرف نسبته إليه سواه ثم لا يبالى بعد ذلك أحسن أم أساء . فهو بالمؤرخ أشبه منه بالأديب . وأديبٍ جمع ماجمعه لعصر غير عصرك وقوم غير قومك وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك ، فإن أفادك قليله لا ينفعك كثيره . وأحسب أن ما يتعلق من الشعر بالحماسة ووصف الحروب وأسلحتها ودمائها وغبارها وأشلائها ووصف الإبل فى مباركها والشاء فى حظائرها والأبقار فى مراتعها هو آخر ما يحتاج المتأدب إلى النظر فيه فى هذا العصر . وبين مطيل قد خلط جيده بردينه وغثه بسمينه فلا تصل يدك إلى ما فى منجمه من ذرات التبر حتى تنبش عنها مالا قِبل لك باحتماله من حقائب الرمل . ومقصرٍ يختص بالاختيار

عصراً دون عصر أو فرداً دون فرد أو قوماً دون قوم أو باباً من أبواب البيان دون باب وهو يعلم أن المتأدّب شاعراً كان أو كاتباً لا يكمل أدبه ولا تصفو قريحته ولا تلمع صفحة بيانه ولا تنحلّ عقدة لسانه إلا إذا تمهل فى روض البيان فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته . وأن الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء ، عن البكاء والرثاء . ولا العتاب والودّ عن التشبيه والوصف ولا البكاء على المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتى عن البكاء على المجد الضائع . والملك الساقط . والفرض المغلوب . والشرف المسلوب كما لا يغنيه وصف السيف فى رونقه وبهائه ، عن وصفه فى حدته ومضائه . ولا وصف البدر فى جماله ورُوائه ، عن وصفه فى عزته وخُيلائه . ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذنب القطاة . ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة ، وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه فى جميع موافقه ومذاهبه حتى يأخذ بأزمّة القول جميعاً ويشتمل على أساليب الكلام بأنواعه ويعلم أن الكتابة فى العلم غير الكتابة فى الأدب وأن للخطب أسلوباً غير أسلوب الكتب ، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقاً فى الكتابة خاصاً به لا يفارقه إلى غيره ولا يَشركه فيه سواه ، وأن الانتقاد غير الهجاء والهجاء غير التهكم والتهكمَ غير التأنيب والتأنيبَ غير الإنذار والتهديد . وأما المعاصرون فهم إما تابع متأثر يعتمد فى اختيار مايختار على نباهة النابه وفى اطّراح مايطّرح على خمول الخامل

ويعتبر التقدم فى الزمن شافعاً يشفع إساءة المسىء والتأخرَ فيه ذنباً يذهب بإحسان المحسن وإما خابط متقمّم يعتمد فى الاختيار على يده لاعلى بصره فيأخذ من كل كتاب صفحة ومن كل ديوان ورقة ثم يعرض على الأنظار كتاباً غريباً فى اختلاف ألوانه وتزايل أوصاله جامعاً بين معلقة امرىء القيس وألفية ابن مالك فى مكان ، وبين مقامات البديع ومقالات صبيان المكاتب فى مكان آخر. وإما عالم أديب قد حال ببنه وبين انتفاع المتأدّبين بعلمه وفضله وسلامة ذوقه وصفاء قريحته أنه يبالغ فى سوء الظن بأفهامهم ويذهب فى تقدير مداركهم مذاهب ما كان لمثله أن يذهب إلى مثلها فتراه يعمد فى اختيار مايختار إلى مايزعم أنه هو القريب إلى أذهانهم اللاصق بعقولهم غير الملتوى عليهم ولا المتعثر بهم فيتبذل كل التبذل ويُسف كل الإسفاف ويورد فى كتابه من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن يكون مادة للطفل فى مهجائه . لا مادة للأديب فى بيانه وسبيلُ كتب المختارات التى لايراد منها غرس ملكة البيان فى نفس المتأدب غير سبيل من قواعد العلوم ومسائلها فى ذهن المتعلم . ولن تستقر ملكة البيان فى النفس حتى يقف المتأدب بطائفة من شريف القول منظومه ومنثوره وقوف المستثبت المستبصر الذى يرى المعنى بعيداً فيمشى إليه أو نازحاً فيستدنيه أو محلقاً فيصعد إليه أو متغلغلا فيمشى فى أحشائه حتى يصيب لبه ولايزال يعالج ذلك علاجا شديداً ينضح له جبينه وتنبهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته بالكيفية التى يريدها . وما رأى هذه النكبة العامة التى أصابت

الناشئين فى ملكاتهم الكتابية ومارُزئوا به من نضوب مادتهم اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية فى التصور والتخيل إلا أثراً من آثار تلك المختارات التى يجمعها لهم الجامعون جمعاً محفوفا بالحذر والاحتياط بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوسواس فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق والمواعظ والزهد وأمثال ذلك مما لا يكاد يتراءى فيه قلب الشاعر ولا تتجلى فيه نفس الكاتب ويفرون الفرار كله من كل مايتعلق بوصف جمال الطبيعة أو جمال الصناعة أو تصوير عواطف النفوس ووجداناتها فى الخير والشر والعرف والنكر كأنما يحسبون أن كل بيتٍ غزل بيتُ ريبة وكلّ وصف خمر حانة شراب . وما سمعنا من قبل ولانحسب، أن سيسمع السامعون من بعد أن متأدباً أفسده ديوان غزل أو أغراه بالشراب وصف خمر لابل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم من فساد الخلط، أو ضلال المؤدبين .

أما الشعر المشتمل على وصف الجمال والنثر المتضمن تصوير دقائق المعانى النفسية والخواطر القلبية مادام بعيداً عن فاحش القول وهجره فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان فى نفس الناشىء. لذلك لم أرَ بُداً من أن أستخير الله تعالى فى أن أجمع لك يابنى فى هذا السفر من جيد المنظوم والمنثور ماأعلم أنه ألصق بك وأدنى إليك، وأنفع لك فى تثقيف عقلك وتقويم لسانك وتحليل ما أسأرتْه الأيام من العجمة فى قلمك ولسانك فهززت لك دوحة الأدب العربى هزة تناثرت فيها هذه الثمرات الناضجة التى تراها بين يديك ولم أترك من ورائى

فى جميع ما تصفحته من دواوين الشعر ومجاميع الأدب وكتب المختارات إلا ما كان رديئاً أو مشوباً بشىء من هجر القول ومعيبه أو بالغاً من الشهرة والسيرورة منزلة لا يخطئها نظر الناظر أو واقعاً فى منزلة بين الجودة والرداءة . وقد جعلت قاعدتى فى الاختيار جمال الأسلوب أولا وجمال المعنى ثانياً فربما أختار ماحسن لفظه وتوسط معناه وقد اختار ماتوسط لفظه وسما معناه كما صنعت فى بعض مختارات قسم المنثور من الباب الأول وهو باب الفصاحة والبيان ولكننى لا أختار بحال ما كان معناه سامياً ونظمه فاسداً . أما الجيد فقاعدته عندى ما يأتى « كل كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارىء وجد فى نفسه الأثر الذى أراده الكاتب منه على شرط ألا يجد فيه مَسحة تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغاً فهو بليغ » ، ولا اكتمك أنى قد استجزت لنفسى ما استجازه لأنفسهم المختارون قبلى فتصرفت فى قليل من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير والاختصار والإبدال والحذف . ولقد لقيت فى هذا السبيل وفى كل سبيل سلكته إلى جمع هذه المختارات عناء كثيراً لا أسألك يا بنى عليه أجراً إلا أن تنتصح بما أنصحك به فى كلمتى هذه ، وهى أنك لن تستطيع أن تنتفع بهذه المختارات إلا بشروط ثلاثة أولها . أن تملأ قلبك من الثقة بها والسكون إليها حتى لا يصرفك عنها صارف ولا يخدعك عنها خادع . وثانيها أن تقف بها وقوف الدارس المتعلم لا وقوف المتنزه المتفرج فلا يمنعك فهمُ ما فهمته من معاودته وترديد النظر فيه حتى ترشف من الكأس

ثمالتها ، ولا تصَعَّبُ مايصعب عليك مراجعته والاختلاف إليه والتغلغل فى أحشائه فإنك لابد ماخض زبدته ومصيبٌ لبه . وثالثها أن تحمى نفسك النظرَ فى هذه المخطوطات المختلفة التى تتجدد كل يوم أمام عينيك فى أسفار هذا العصر وصحفه فإن التربية الكتابية مثل التربية الأخلاقية يسرى فيها الداء ثم يُعوِز منها الدواء . اللهمّ إلا ماكان من أمثال ما يكتبه الكتاب الذين اخترت لهم فى هذا الكتاب فى المعانى التى عُرفوا بها وبَرزوا فيها . فإن أنت أخذت بنصيحتى وعُنيت بها العناية كلها وكنت ممن رزقهم الله قريحة خصبة صالحة لنماء مايغرس فيها من البذور الصالحة بلغت ما أردتَ لنفسك وما أردتُ لك إن شاء الله تعالى ؟

مصطفى لطفى المنفلوطى

باب الفصاحة والبيان

قسم المنظوم

قوة الحجة

«لأعرابى»

وداهيةٍ داهى بها القومَ مفلقٍ شديدٍ بعوراء الكلام أزومها(١)
أصخْتُ لها حتى اذا ما وعيتُها رميتُ بأخرى يستدير أميمها(٢)
ترى القوم منها مطرقين كأنما تساقوْا بكأس ما يَبِلُّ سليمها(٣)
فلم تُلْفِنى فهًّا ولم تُلفِ حجتى ملجلجة أبغى لها من يقيمها(٤)

---

(١) عوراء الكلام : معيبه ؛ والأزوم : العض . ولقد أنصف هذا الأعرابى خصمه فوصف حجته بالقوة إلا أنه شكا منه مالا يزال يشكو منه الناس حتى اليوم وهو استعانة الخصم على خصمه فى المناظرة بالهجو والعيب .

(٢) الأميم : المضروب على أم رأسه ، فى هذا البيت أدب جميل من آداب المناظرة : وهو أن يصغى المناظر لأقوال مناظره حتى يستوعبها ثم يدلى بحجته .

(٣) بلّ : برىء . والسليم : اللديغ .

(٤) الفه والفهيه : العيى .

تهذيب الشعر

« لعدى بن الرقاع »(١)

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها   حتى أقوِّم ميلها وسِنادها(٢)
نظر المثقف فى كُعوب قناته   حتى يقيمَ ثقافُهُ منآدها(٣)

وصف القلم

« لأبى تمام »(٤)

لكَ القلم الأعلى الذى بشباته
تصاب من الأمر الكلى والمفاصل(٥)

---

(١) عدى بن الرقاع : أحد شعراء العصر الأموى معدود فى الطبقة الثانية وإحسانه قليل ونسيبه الغاية فى الإحسان .

(٢) السناد : كل عيب فى القافية قبل الروى .

(٣) ثقف الرمح : قومه . وكعوب الرمح : عقده . والمنآد : المنحنى .

(٤) أبو تمام (ت ٢٣١ هـ) : هو حبيب بن أوس الطائى أحد شعراء الطبقة الأولى معروف بحسن مراثيه وبديع وصفه وابتكار معانيه ، وعيبه التكلف والافتتان بالصناعة اللفظية فى أكثر شعره .

(٥) الشباة : حد السيف ، يريد أن قلمه يصيب الغرض ويصادف المحز

له الخلوات اللاء لولا نجيُّها
لما احتفلت للملك تلك المحافل(١)

لُعاب الأفاعى القاتلات لعابُهُ
وأرىُ الجنى اشتارتهُ أيدٍ عواسل(٢)

له ريقه طلٌّ ولكنّ وقعها
بآثاره فى الشرق والغرب وابلُ

فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكب
وأعجمُ إن خاطبته وهو راحل

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
عليه شعاب الفكر وهى حوافل(٣)

أطاعتهُ أطراف القنا وتقوّضت
لنجواه تقويضَ الخيامِ الجحافل(٤)

إذا استغزرَ الذهنَ الذكى وأقبلتْ
أعاليه فى القرطاس وهى أسافل(٥)

---

(١) النجى: المسارر ، والاحتفال : حسن القيام بالأمر .
(٢) الأرى : العسل: واشتارته ،استخرجته،والعواسل: التى تستخرج العسل
(٣) الحوافل : المتلئة .
(٤) تقوضت : انتقضت ، وتقويض الخيام : أى كتقويض الخيام ، والجحافل : فاعل تقوضت . (٥) استغزره : وجده غزيراً .

وقد رَفدته الخنصران وسدّدت
ثلاث نواحيهِ الثلاث الأنامل(١)
رأيت جليلا شأنُهُ وهو مرهف
ضنًى وسميناً خطْبُه وهو ناحل

تهذيب الشعر
« للبحترى »(٢)

حجج تخرس الألدّ بألفا ظ فرادى كالجوهرى المعدود
ومعانٍ لو فضلتها القوافى هجّنتْ شعر جَرول ولبد
حُزنَ مستعمل الكلام اختيارا وتجنبنَ ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـنَ به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدونَ فى الحلل البيـض إذا رحنَ فى الخطوط السود

---

(١) رفدته : أعانته ، وسددت : قومت .
(٢) البحترى (ت ٣٨٣ هـ) : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى ، أفضل الشعراء حسن ديباجة وجمال أسلوب وأحسن ما يجيد فيه الوصف والوصف لب الشاعرية وجوهرها .

سحر البيان

« لأبى تمام »

كشفت قناعَ الشعر عن حُرِّ وجهه وطيرته عن وكره وهو واقع

بغرّ يراها من يراها بسمعه ويدنو إليها ذو الحجا وهو شاسع

يود ودادا أن أعضاء جسمه إذا أنشدت شوقاً إليها مسامع

وصف قصيدة

« لابن الرومى »(١)

نظم الفكرُ درّها غير مثقو ب إذا الدرّ شين بالتثقيب

لم يعبها سوى قواف تشاغلـ ـن عن المدح فيك بالتشبيب

يطرب السامعين أيسر مافيها وإن أنشدت بلا تطريب

سَوّدت فيك كل بيضاء تسويـ ـداً تراه العيون كالتذهيب

لو يناغى بيانها العُجمَ يوماً عَرّب العُجمَ أيما تعريب

---

(١) ابن الرومى (ت ٢٨٣ هـ) : هو على بن العباس أقدر الشعراء على اختراع المعانى الغريبة والافتتان فيها ، وله فى باب الهجاء قذع وإيلام وتنزل إلى هجر القول أحياناً ؛ وعيبه أن فى كثير من شعره ركة وتكلفاً وأن فى بعض قلقاً واضطراباً .

سيرورة الشعر

« للمتنبي »(١)

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنى به من لا يغنى مفردا
أجزنى إذا أنشدتَ شعراً فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مردداً

سهولة الشعر

« لبشار بن برد »(٢)

عميت جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافداً ... لقلب إذا ماضيع الناس حصلا
وشعر كزهر الروض لاءمت بينه ... بقول إذا ماأحزن الشعر أسهلا

---

(١) المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور ، يعلو فلا يجاريه مجار ثم ينحط أحياناً فلا يساوى أصغر شاعر فإذا أسقطنا رديئه رأينا أنه أشعر الشعراء أولا وأخيراً وأقدرهم على إلباس أدق المعانى وأتمها أجل الأثواب وأبدعها .

(٢) بشار بن برد (ت ١٦٢ هـ) : شاعر جزل فخم محكم الأسلوب بديع الافتنان يجيد فى كل نوع من أنواع الكلام وهو أول من نقل الشعر من البداوة إلى الحضارة .

شعر فيكتور هوجو

« لحافظ ابراهيم »(١)

ما ثغور الزهر فى أكمامها ضاحكات من بكاء السحبِ
نظمَ الوسمىّ فيها لؤلؤا كثنايا الغيد أو كالحَببِ
عند من يَقضى بأبهى منظراً من معانيه التى تلعب بى
بسمتْ للذهن فاستهوت نهى مغرم الفضل وصبّ الأدبِ

---

(١) حافظ إبراهيم : شاعر من شعراء الطبقة الأولى وكاتب من أوائل الكتاب وله فى باب الاجتماع ما لا يلحقه فيه لاحق وشعره سائر فى جميع الأقطار العربية ، ويمتاز باقتداره على الجمع بين السلامة والرقة والجزالة والفخامة ، وهو أحد الذين أحيوا موات اللغة العربية باستعمال غرائب مفرداتها ونادر تراكيبها فى شعره ونثره ، ولا أعرف بين أدباء العصر أصح منه ذوقا فى التمييز بين جيد الكلام ورديئه .

ديوان الفريد دى موسيه

« لخليل مطران »(١)

وهى أبيات كتبها إلى فتاة متأدبة أهدى إليها هذا الديوان :

عاش هذا الفتى محباً شقياً وقضى عمره محباً شقيا
وبكى دمع عينه فى سطورٍ جعلتهُ على المدى مبكيا
منشد للغـــرام لم يشدُ إلاّ كان إنشاده نواحاً شجيا
شاعر كان عمره بيت تشبيـــب وكان الأنين فيه الرويا

---

(١) خليل مطران : شاعر راقى الخيال بديع التصوير يجيد فى كل شىء حتى فى المدائح النبوية التى هى أبعد المعانى عن ذهنه وكاتب لا أعرف له شبيهاً فى القدرة على تصوير جزئيات المعانى وأدق ما فى أعماق القلوب إلا أن اضطلاعه ببعض اللغات الأفرنجية وحرصه على المعنى قبل كل شىء يزحزح ديباجته أحيانا عن الأسلوب العربى والمنهج المطبوع فهو فى المتأخرين أشبه بابن الرومى فى المتقدمين .

قسم المنثور

صناعة الإنشاء

« لابن المعتمر »(١)

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً وأشرف حسباً وأحسن فى الأسماع وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنىً بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً(٢) وخفيفاً على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيدُ هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ(٣) معنى كريماً فيلتمس له لفظاً كريماً

---

(١) ابن المعتمر (ت ١٨٣ هـ) : هو بشر بن المعتمر أحد علماء الكلام ورئيس فرقة من المعتزلة تسمى باسمه وكان خطيباً مفوهاً وعالماً جليلا .

(٢) القصد : المعتدل .

(٣) أراغ : طلب .

فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما وكن فى إحدى ثلاث منازل : أولاها أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلا ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت والمعنى ليس يَشرُف بأن يكون من معانى الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة وإنما الشرف مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلصُف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام ، فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك وتجد اللفظة لم توقع موقعها ولم تصر إلى قرارها من أماكنها المقسومة لها والقافيةَ لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها فلا تُكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ولم يعبك بترك ذلك أحد وإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً مطبوعا ولا محكما لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من أنت أقل

عيباً منه ورأى من هو دونك أنهُ فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى عليك البيان بعد إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هنالك طبيعة أو كنت جريت من الصناعة على عرق فإن تمنع عليك الأمر بعد ذلك فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة .

الإرتاج

« لأحد أمراء العباسيين »

وقد صعد المنبر ليخطب فأرتج عليه فقال :

أما بعد فقد يجد المعسر ويُعسر الموسر ويُفل الحديد ويَقطع الكليل وإنما الكلام بعد الإفحام . كالإشراق بعد الإظلام . وقد يعزب البيان ويعتقم الصواب وإنما اللسان مضغة من الإنسان يفتر بفتوره إذا نكل . ويثوب بانبساطه إذا ارتجل . ألا وإنا لا ننطق بطراً ، ولا نسكت حصراً ، بل نسكت معتبرين . وننطق مرشدين ، ونحن بعدُ أمراء الكلام ، فينا وشجت عروقه وعلينا عطفت أغصانه

ولنا تهدلت ثمراته فنتخير منه ما احلولى وعذب ونطرح منه ما املوح وخبث ومن بعد مقامنا مقام ، وبعد أيامنا أيام . يعرف فيها فضل البيان وفضل الخطاب ، والله أفضل مستعان .

فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم

« للجاحظ »(١)

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق وجانب أصحاب التقعير واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة وشِيد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوه وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه عن

---

(١) الجاحظ (ت ٢٥٤ هـ) : هو أبو عثمان عمرو بن بحر العالم المشهور والكاتب القدير وله على جميع الكتاب قاطبة مزية الإحسان والعلو فى كل موضوع يطرقه حتى فى المواضيع التى لم يألف أدباء الكتاب الكتابة فيها وربما كان كتابه الحيوان أبلغ كتبه وكان فى كتابته كثير التوسع والاستطراد والخروج من غرض إلى غرض حتى يكاد يقع أحياناً فى الغموض والإبهام .

إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت به قدم بل يُبذ الخطبَ الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفُه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلْج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المؤاربة ولا يهمز ولا يلمز ولا يُبطىء ولا يَعجل ولا يسهب ولا يحصر وما سمع كلامٌ قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً من كلامه صلى الله عليه وسلم .

فضل البيـــان

« للجاحظ أيضاً »

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره وكان معناه فى ظاهر لفظه حتى يخيل لك أن الله عزّ وجلّ ألبسه من الجلالة وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه منزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة .

مقامات الكلام

« لبعض الكتّاب المتقدّمين »

أوّل البلاغة اجتماع آلتها وذلك أن يكون الخطيبُ رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخيِّر اللفظ لايكلم سيد الأمّة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون فى قواه فضلٌ للتصرف فى كل طبقة ولا يُدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفاً عظيما ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلته وتتصرف معه أداته ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى حسن الظن بها مقتصداً فإنه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة لنفسه ظلمها فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها أمنها فأودعها تهاون الآمنين.

الأديب غير الكاتب

« للمبرد »(١)

لا أحتاج إلى وصف نفسى لعلم الناس بى أنه ليس أحد من الخافقين يختلج فى نفسه مسئلة مشكلة إلا لقينى بها وأعدَنى لها فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علىّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخُطب والرسائل ولربما احتجتُ إلى اعتذار من فَلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذى أقصده نُصب عينى ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرِّض ببعض أمورى فأتعبتُ نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها كنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينصرف لسانى إلى غيره فزيادة المنطق على الأدب خدعة وزيادة الأدب على المنطق هجنة .

---

(١) المبرد (ت ٢٨٥ هـ) : هو أبو العباس محمد بن زيد المبرد أحد أشياخ اللغة العربية فى عصره . وكتابه الكامل أحد الكتب الأربعة التى عدت أمهات الأدب وكتابته فى تآليفه فى الطبقة الأولى من البلاغة إلا أنه كان لا يحسن اختيار الشعر ولعل ذلك كان لغلبة نزعة اللغة والرواية عليه .

الفصاحة فى الأسلوب

« لأبى هلال العسكرى »(١)

إنما يحسن الكلام بسلاسته وسهولته وفصاحته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبه إعجازه بهواديه وموافقة مآخره لمباديه فتجد المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه . ومتى جمع الكلام بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة والرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعد من سماجة التركيب وَرَدَ على الفهم الثاقب فقبله ولم يرده . وعلى السمع المصيب فاستوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ والفهمُ يأنس بالمعروف ويسكن إلى المألوف ويصغى إلى الصواب ويهرب من المحال وليس الشأن فى إيراد المعانى فالمعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى وإنما هو جودة اللفظ وصفاؤه ، وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً مستقيماً ، أما اللفظ فلا يقنع به قانع حتى يكون على ما وصفناه .

---

(١) أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) : هو أحد كبار علماء الأدب وصاحب كتاب للصناعتين الذى لم يؤلف فى بابه مثله وأسلوبه فى كتابه هذا فصيح يدل على أدب جم وذوق سليم .

دعوى الأدب
« للآمدى »(١)

يظهر أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر لأنا نرى أن الذى يعلم منهم من العين والورق والرقيق والخيل والسلاح والبز والطيب أكثر مما يعلم من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها فى المعرفة بتلك الأشياء لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحة سبيبه واستدارة كفله وبريق شعره وحسن إشرافه وصحة قوائمه وسلامة أعضائه وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره وأصحابه البصر به ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه وصقاله وصفاء حديده ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه وكثرة صوره وبديع نقوشه واختلاط ألوانه فلا يبادر إلى إعطائه ثمنه حتى يرجع

---

(١) الآمدى (ت ٣٧١ هـ) : هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى أحد نقدة الكلام المشهورين وكتابه « الموازنة » بين أبى تمام والبحترى من افضل الكتب الأدبية فى دقة النظر وعلو الأسلوب وحسن الاعتدال .

إلى أهل العلم بجوهره وجودة رُقعته وصحة نسجه وخلاص إبريسمه ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها أو دقة معانيها أو ما اشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه فى مواضعها وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التى لا يدركها إلا أرباب الصناعة ، وكما أنه قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين فى الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيراً بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفهُ بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته . فكذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفاً وقد ذكر هذا المعنى بعينه محمد بن سلام الجمحى وأبو على دعبل بن على الخزاعى فى كتابيهما وحكى إسحق الموصلى قال : قال لى المعتصم أخبرنى عن معرفة النغم وبينها لى ، فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة . قال : وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال اختر أحدهما فاخترت ، فقال: من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى

التبيين ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنهُ اللسان ، وقيل لخلف الأحمر إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر وتقول هو ردىء والناس يستحسنونهُ ، فقال : إذا قال لك الصيرفى إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد . فمن سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له أن يقضَى له العلم بالشعر والمعرفة بأغراضه وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله ويعمل على تمثاله ولا ينازَع فى شيء من ذلك إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظراً فى الخبرة وطول الدربة والملابسة ، وأعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسائله وتلاحه ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه ولا يجد سبيلا إلى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومن هو أخص الناس به ولا أن يأتيك فى ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة ، وإن كان ما اعترضت فيه اعتراضاً صحيحاً وما سألت عنه سؤالا مستقيما . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابسة لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن آخر بمجرد القول والصفة إلى إذا استطاع صاحب البصر آلاف بالسيوف أن يصف لك عشرة سيف مختلفات الأجناس والجواهر بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها فى لحظة واحدة عالماً بكل علة محيطاً بكل حجة وهذا محال غير ممكن لأحد ولا مستطاع إلا لخالق الخلق وبارىء البشر ، وبعد فلعل الذى

غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تتصفحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك وأثاث بيتك وطرق نفقتك لأنا نراك لا تبتاع وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهماً بديناراً حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك ، فكان خليقاً بك أن تسلم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال .

أو لعل الذى غرك فى ذلك أنك شارفت شيئاً من تقسيمات المنطق وجميلا من الكلام والجدل أو علمت أبواباً من الحلال والحرام أو حفظت صدراً من اللغة أو أطلعت على بعض مقاييس العربية فظننت أن كل مالم تلابسه من العلوم ولم تزاوله يجرى ذلك المجرى وأنك متى تعرضت له وأمررتَ قريحتك عليه نفذت فيه وكشفت عن معانيه ، وفاتك أن العلم بجميع أنواعه لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع إليه والإكباب عليه والجد فيه والحرص على معرفة أسراره وغوامضه وقد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر ، لأن كل امرىء إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه ، فينبغى أصلحك الله أن تقف حيث وُقف بك وتقنع بما قسم لك ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك .

مناظرة

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري (١)

للآمدي أيضاً

(صاحب أبي تمام) كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحتري أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الاصغر .

(صاحب البحتري) أما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذ له ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ولا رأى قط أنه محتاج إليه ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفيقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها عَلِق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال أيها الأمير ما ظننتُ أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحتري ورأى أبو تمام الإنكار

---

(١) الظاهر أن الآمدي فرض هذه المناظرة فرضاً ليمثل فيها رأى المتشيعين لذينك الشاعرين .

فى وجه أبى سعيد فحينئذ قال له أبو تمام أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنهُ أحسن فيه الإحسان كله وأقبل يقرّظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أبا تمام جدير به أن يستغنى عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا يمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه فما رأينا أن أحداً قال إن جميلا أشعر منهُ بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

(صاحب أبى تمام) إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سُئل عنه وعن أبى تمام فقال إن جيده خير من جيدى وجيد أبى تمام كثير .

(صاحب البحترى) إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحترى لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً

قبيحاً وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط ومن لا يسقط ولا يُسف[1] أفضل ممن يسقط ويُسف .

(صاحب أبى تمام) إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماماً متبوعا وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره وهى فضيلة عَرِى عن مثلها البحترى .

(صاحب البحترى) ليس الأمر على ما وصفت وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأوّلٍ فيه ولا سابق إليه بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف والسنن المألوف بل إن مسلماً غير مُبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها ولكنهُ حَرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل إنه أول مَن أفسدَ الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعانى استكراهاً ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام

---

(١) أسف : أخطأ

لهذا المذهب وسبْقه إليه وكلُّ مافى المسألة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه . أما البحترى فإنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ماجاء فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله ، ونَفاقُ شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

(صاحب أبى تمام) إنما أعرض عن شعر أبى تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقدفهموه وعرفوا قدره وإذا عرفتْ هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

(صاحب البحترى) لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابى وأحمد بن يحيى الشيبانى ودعبل بن الخزاعى من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب ، وقد علمتم مذهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره حتى قال دعبل إن ثلث شعره محال(١) وثلثه مسروق وثلثه صالح ، وقال ماجعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر ، وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل ، وهذا محمد بن يزيد المبرد ماعلمناه دوّن له كبير شىء .

---

(١) المحال : الفاسد

(صاحب أبي تمام) إن دعبلا كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ماهو معروف ومشهور ، فلا يُقبل قولُ شاعر فى شاعر ، وأما ابن الأعرابى فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدرى فيعدل إلى الطعن عليه ، ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

(صاحب البحترى) لاعيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة ، والعيبُ فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

(صاحب أبي تمام) إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

(صاحب البحترى) كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعى شاعراً عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعرَ العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقةَ من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء والتجويدُ فى الشعر ليست علتُه العلم والشائع المشهور أن شعر العلماء دون الشعراء وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هـــذا ولا اعتمده ولا كان يعده فضيلة ولا يراه علماً ، بل كان يرى أنه شاعر لابدّ له أن يقرّب شعرَه من فهم سامعه ، فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه ، على أن هـذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

(صاحب أبى تمام) لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه ، وغير غريب على فكر نَتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما وَلد أن يلحقه الكلال فى الأوقات والزللُ فى الأحيان بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطئه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلطَ والعيب وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط الخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم على تقصيرهم .

(صاحب البحترى) أما أخـــذُ السهو والغلط على من أُخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين فى البيت الواحد والبيتين والثلاثة أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحـــدة من عدة أبيات يكون فيها

مفسداً أو مخيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيراً استعارةً قبيحة أو مخطئاً المعنى بطلب الطباق والتجنيس أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

(صاحب أبي تمام) إنكم تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحتري نفسه فقد رثاه بعد موته رثاءً اعترف فيه له بالسبق وفضّله على شعراء عصره .

(صاحب البحتري) لمَ لا يفعل البحتري ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين ، وأخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه على أن الميت خاصة يعطى فى تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

(صاحب أبي تمام) كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحتري واحد منهم .

(صاحب البحتري) إنما صار جيدُ أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته ووقوعه فى تضاعف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه وجيد البحتري كجيد أبي تمام إلا أنه يقع فى جيدٍ مثله أو متوسط فلا يفاجىء النفسَ منه ما يفاجئها من جيّد صاحبه .

فتنة القول

« للجاحظ »

قال بعض الربانيين(١) من الأدباء ، وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشادق والتعمق ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلمَ من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان ، يحسن مايسمع أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحهُ المتكلم قولا متعشقاً صار فى القلب أحلى وللصدور أملأ ، والمعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحوّلت فى العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر مازُيدت وعلى حسب ما زخرفت والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ومدخل خِدع الشيطان خفى .

فصاحة جعفر بن يحيى

« لبعض الكتاب المتقدمين »

كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، والإفهام الذى يغنى عن الإعادة ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عنها ، وما رأيت أحداً

---

(١) الربانى : العارف بالله ويطلق على الحبر.

لايتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يترقب لفظا قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ولا أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى .

حقيقة البيان

« لبعض الكتاب المتقدمين »

إن المعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى أذهانهم والمختلجة فى صدورهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشـــية ومحجوبة مكنونة وموجودة فى معنى معدومة . لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعان له على أمره ولا على ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره . وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفى منها ظاهراً والغائب شاهداً والبعيد قريباً وهى التى تلخص الملتبس وتحل المتعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد مطلقاً والمجهول معروفاً والوحشى مألوفاً والغُفل(١) موسوماً ، وعلى قدر وضوح

---

(١) الغفل : مالا علامة فيه.

الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون ظهور المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع . والبيان اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أى جنس كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغت ذلك فذلك هو البيان .

فصاحة القرآن

« للباقلانى »(١)

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم

---

(١) الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) : هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب ، كان معروفا بالجدل وقوة الحجة رسوخ القدم فى علم الكلام والبراعة والتفوق فى الفصاحة والبيان ومن قرأ كتابه إعجاز القرآن ظن أنه يقرأ أسلوب الأدباء المعربين لا المتكلمين والمعجبين .

وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل غير المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى مايرسل إرسالا فيطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق فضلا عن أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكمة الكثيرة والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف ، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانىَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ذلك إلى ما تراه من أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف إليها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد

وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخليط المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجوّد فى المدح ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ ومنهم من يُغرب فى وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل ، أوغير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، وهم قوم لاخلاف فى تقدمهم فى صنعة الشعر ولا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها فيأتى بالغاية والبراعة فى معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف فى شعره ، ثم نجد فى الشعراء من يجود فى الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكنه يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله ، ونجد من الناس من يجود فى الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً عجيباً . ومنهم من هو على الضد من ذلك . وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى ذكرناها على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف لاتفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا . وكذلك قد تأملنا ما تتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات

الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا تختلف وهناك شيء آخر هو خير ما يؤتى به للدلالة على بلوغ الفصاحة في القرآن منزلة الإعجاز وهو أن ورود تلك المعاني الغريبة التي يتضمنها في أصل الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين بهذه الأساليب البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على العرب مجاراته فيه لأنها معانٍ غريبة غير مطروقة ، وقد عُلم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأحباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة وبراعةُ اللفظ في المعنى البارع أعجب من براعته في المعنى المتداول المتكرر، وللقرآن مزية أخرى غير ما تقدم وهي أنه من المقرر المعروف أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منهُ الكلمة في تضاعيف كلام أو تُقذف ما بين شعر فتأخذه الأسماع وتتشوف إليه النفوس ويُرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة وسط العقد ، وأن ترى الكلمة من القرآن يُتمثل بها تضاعيف كلام كثير فإذا هي غرة جميعه وواسطة عقده والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله وانفراده ، وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج ومعرض رشيق ونظم أنيق غير معاصٍ على الأسماع ولا ملتوٍ على الأفهام ولا مستكره في اللفظ يمر كما تمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العُباب جموح

على الطارق فى المنتاب . كالروح فى البدن والنور المسيطر(١) فى الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إعجاز القرآن

« للقاضى عياض »(٢)

إنّ كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه : أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك أنهم كانو أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقه ،

---

(١) المسيطر : المعتمد

(٢) القاضى عياض : هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى السبتى نسبة إلى مدينة سبتة — كان إماماً فى الحديث والفقه وكاتباً من أوائل الكتاب ، وكتابه الشفاء فى السيرة المحمدية لم يؤلف مثله فى موضوعه من حيث بلاغة عبارته وجمال أسلوبه

وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديهاً فى المقامات والخُطب ، ويرتجزون بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال . ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن ويجرءون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم قدحوا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها فقالوا فى الخطير والمهين . وتفننوا فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القل والكثر ، وتساجلوا فى النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . أحكمت آياته ، وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان مجامعه وبدائعه واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على

كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا ، وأشهر فى الخطابة رجالا ، وأكثر فى الشعر والسجع ارتجالا ، وأوسع فى الغريب واللغة مقالا بلغتهم التى بها يتحاورون . ومنازعهم التى عنها يناضلون . فما زال صارخاً بهم فى كل حين . ومقرعاً لهم على رءوس الملأ أجمعين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

الشعراء المحدثون

قال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبى نواس فقال : إن جد أحسن وإن هزل ظرف وإن وصف بالغ ، يلقى الكلام على عواهنه لا يبالى من أين أخذه . قلت: فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم ير كأنه رآه على أن فى شعره خللا كثيراً. قلت: فمروان ابن أبى حفصة؟ قال : شاعر راض عن نفسه يستحسن كلما جاء منه معجب لا يرى أن أحداً يتقدمه كثير الصواب كثير الخطأ ليس لشعره صنعة . قلت : فمسلم بن الوليد ؟ قال : خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى. قلت : فأبو العتاهية ؟ قال: غثاء(١) جم واقتدار سهل وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد قلت : فعباس بن الأحنف؟ قال : يلقى دلوه فى الدلاء فيغترف الصفو

(١) الغثاء : الزبد .

أحياناً والحمأة(١) أحياناً على أن كدره أكثر من صفوه . قلت : فسلم الخاسر ؟ قال : مقل مداح شعره ديباج وعهن يموه الردىء حتى يشبه الجيد . قلت : فأبو الشيص؟ قال: جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التى نفضت ففيها المستعذب والمستبشع . قلت: فعلى بن جبلة؟ قال : بحاث عن الكلام الفخم والمعنى الرائع لاينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء . قلت: فأبو تمام؟قال : سيل كثير الغثاء غزير الخارجم النطاف(٢) فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت : فعبد الصمد بن المعذل ؟ قال:خراج ولاج يعتسف تارة ويهتدى أخرى. قلت: فعلى بن الجهم؟ قال: كلام رصين ومسلك وعر عقله أغلب على شعره من طبعه . قلت : فبكر بن النطاح؟ قال: تشبه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب فهو الساقط بين القريتين .

---

(١) الحمأة : الطين الأسود

(٢) النطاف : الماء الصافى

نظرات المنفلوطى

« لأحمد لطفى بك السيد »(١)

يكتب الكاتبون عندنا وفى البلاد الأخرى فيقع بعضهم على بعض فى كيفية استحضار الأفكار وصوغ العبارات وفى الأسلوب الكتابى إلى حد يختلط فيه أمرهم وتفنى به شخصيتهم فلا تكاد تفرق بين أحدهم وبين الآخر إلا باختلاف الإسم . وهذا الصنف من الكتّاب فى كل أمة كثير، وكتاباتهم أكثر، ولكن الزمان نقاد غير متسامح لا يبقى فى كفه من تلك الأسفار الكثيرة إلا القليل .

ومن الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى فى بيئة الكتاب . لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة . بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثوب الذى يناسبها على تفصيل مودة الأذواق

---

(١) أحمد لطفى بك السيد: هو من أعلم الكتاب فى هذه العصر بالأخلاق والاجتماع والحكمة ، ومن أقدرهم على الحجة التى يشوبها كذب ولا تخييل ، وله فى كتابته صفة خاصة به ، منشؤها أنه يصدر فيما يكتب عن رأى نفسه ، وقلمه أطهر الأقلام وأبعدها عن الهجر والعيب ، ولو أمكن أن يخلو قلم كاتب من كل عيب لخلا قلم لطفى السيد من الأساليب الأفرنجية التى يستعملها أحيانا

الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل، إلا أن كتاباتهم على قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الأولى التى تدفعها إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح . وهى خير اللغات وأبقاها .

من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى ، أكاد لا أجد له فى طريقته مثيلا بين كتابنا فإنه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف المساواة ، يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه الذى يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر ، يطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقربها من القارىء ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل .

أقول من غير محاباة وفى يدى نظرات المنفلوطى : إن السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابى الحاضر جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل فكان كتابه النظرات بذلك إحدى المعجزات عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق وأنهما لا يزالان كذلك مابقى البعد بين مطلع الشمس وبين مغربها .

أنصح للشبيبة أن تجعل نظرات السيد المنفلوطى كتاب مطالعتهم، وأنصح للناشئة أن يحفظوا منه . ما استطاعوا ، فإن هذا الكتاب خير مرب لملكة الإنشاء .

الشـــعر
« لأحد الأدباء المعاصرين »

كتب إلى كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكتب فقرة، ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ماتنظم شطرة ، فلم لم تكتب فى عهدك الأول ولم لم تشعر فى عهدك الثانى ؟ كأنما ظن عافاه الله أنى أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، أو أهيم فى وادٍ غير ذلك الوادى وهل الشعر إلا نثارة(١) من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً ، وينثرها الكاتب إن شاء نثراً ؟ أو نغمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين(٢) من عروض وقافية أو خافيتين(٣) من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالى شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شؤونه وأطواره ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزة فى النفس أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه وتطريباً لعاطفته مانظم ناظم شعراً . ولا روى عروضى بحراً .

---

(١) النثارة : ماتناثر من الشىء.
(٢) القادمة : مفرد قوادم، وهى عشر ريشات فى مقدم جناح الطائر.
(٣) الخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

ما كان العربي فى مبدأ عهده ينظم الشعر ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه ، وما علله وزحافاته ، ولكنه سمع أصوات النواعير وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحمائم فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذ له أن يبكى لبكائها ، وينشج لنشيجها ، وأن يكون صداها الحاكى لرناتها ونغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم منه إلا أنه ذلك الخيال السارى المتمثل فى قريحته المتردد بين شدقيه ، ولا من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من صوره ولون من ألوانه .

ذلك منتهى نظر العرب إلى الشعر ، وذلك ما دعاه إلى أن يسمى النبي الذى بعثه الله إليه شاعراً ، وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه ما قصد فى حياته قصيدة ولا رجز أرجوزة ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب وأملكه للعواطف والوجدانات وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنايات المتطرفة وأمثال تلك مما لا ينطق به الناطق فى أكثر منازعه ومناحيه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعرى فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

ما كلُّ موزون شعراً ، ولا كل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغنى به مقطعاً تقطيعاً رازن تفاعيله فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء يتمثل فى قول الملك

الضليل(١) * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * كما يتمثل فى قول الخليل * فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن * ويتراءى فى أوتار الحلق الناطق كما يتراءى فى أوتار العود الصامت .

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلى فى جيد الغانية الحسناء ، أو الوشى فى ثوب الديباج المعلم . فكما أن الغانية لايحزنها عطل جيدها والديباج لايزرى به أنه غير مُعلم كذلك الشعر لايذهب بحسنه ورُوائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها أنت ترى أن لاصلة بينهما إلا تلك الصلة الاصطلاحية التى لاسبب لها إلا اعتياد الناس أنهم ينظمون مايشعرون ، وتلك الصلة هى التى خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما وهى التى أدخلت النظامين فى عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءاً واحداً لا يستطاع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدين المستبصرين ؛ فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ، ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد فى الناس شخص واحد يُعجزه تصور تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

---

(١) هو لقب امرىء القيس .

ولقد كتب الكاتبون فى تعريف الشعر وافتنوا فى ذلك افتنانا بعد به عن مكانه . وعندى أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هى التأثير وميزان جودته مايترك فى النفس من من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه وتصوير مافى نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنانه فيصبح شريكه فى حسه ووجدانه ، يبكى لبكائه ويضحك لضحكه ويغضب لغضبه ويطرب لطربه ويطير معه فى ذلك الفضاء الواسع من الخيال فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها وشموسها وأقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها(١) وناطقها وصامتها من حيث لاينقل إلى ذلك قدماً ، ولا يلاقى فى سبيله نصباً .

فإن سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث الهميم
نزلنا دوحة فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية(٢) العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

---

(١) يقال بغم الغزال : إذا صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .
(٢) الحالية : لابسة الحلى .

خيل له أنه يخطر فى ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره . خطرَ انَ النسيم بين ظلاله وأشجاره . وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء فتولهنَ وفزعنَ إلى جوانب عقودهنّ يلمسنها بأطراف بنانهن يحسبنَ أن قد وَهتْ فانتثرت جواهرها فى ذلك الروض الأريض.

وإن سمع قول الآخر :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
حبستُ بها صحبى وجمّعت شملهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهاً تدّريها(١) بالقسى الفوارس
فالراح ما زُرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مر فى ضاحية من ضواحى بغداد بدار موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون(٢) ويترعون الكؤوس بأمثالها فاقترب منها وأطل من خصاص(٣) بابها فرأى أولئك القوم مجتمعين

---

(١) ادرى الصيد : خاتله .
(٢) قصف : أقام فى أكل وشرب ولهو .
(٣) الخصاص : كل خلل وخرق فى باب أو غيره .

حول دَن من الخمر قد تكامل سنه وشيب الدهرُ فوديه(١) ففصدوه فسال دمه الأحمر فى كؤوس من الذهب منقوشة نقوشاً فارسية قد استقرت فى قرارتها صورة كسرى فارسَ ودارت فى باطنها صور فرسانه متنكبى قسيهم كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم .ورآهم يملؤون الكؤوس إلى مايوازى أعناق تلك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى مايخطى رءوسهم . فتسلل من مكانه مغتبطاً بمجمعهم وبما هيء لهم من الهناء والنعمة فيه ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها لاتسمع بها نغمة ولا نأمة(٢) فدخلها فلم ير فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها مبعثرة فى جوانبها وخطوطاً كانت رسمتها زِقاق الخمر فوق تربتها فى غدوها ورواحها بين أولئك الندماء ، فانصرف حزيناً مكتئباً يسمع صفير الريح الضارب فى جوانبها فيردد قول القائل :

رُب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

ويوم كتنور الإماء سجرْته(٣) وأوقدنَ فيه الجزل حتى تضرما
رميتُ بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرُها دما

---

(١) الفودان : ناحيتا الرأس . (٢) النأمة : النغمة والصوت الضعيف .
(٣) سجر الرجل التنور : ملأه وقوداً .

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب فى وجهه فيشيح بوجهه عنه فراراً من لفحاته ويكاد يبكى رحمةً لذلك الشبح المصهور الذى ملكت عليه تلك التنوفةُ الحمراء سبيله وحالت بينه وبين نفسه فلا هو بصابر إن رام صبراً ولا بناج إن أراد نجاء .

وإن سمع قول الآخر :

وارحمتا للغريب فى البلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعاً
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه وجدا على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أن لو رآه فى بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته : وخفض لوعته . ثم أخذ بيده فأنزله من نفسه منزلا كريماً وأبدله أهلا بأهل وجيراناً بجيران .

وإن سمع قول الآخر :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
لا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُل مالى إن تتابع لى غنى ... وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا
وإنى لعبد الضيف مادام ثاوياً ... وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

أكبرَ تلك المكرمة العظيمة وأجلها ونظر إليها فى علياء سمائها كما ينظر الفلكى إلى كوكبه ، وشعر كأن نورها قد لمع فامتدّ شعاعه إلى جوانب نفسه فأضاءها .

ولاغرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة فقد نكبَ الرشيد البرامكة عند مادسّ له أعداؤهم ذلك المغنى الذى غناه هذا الصوت :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بنى أمية بعدماقربهم وأدناهم عندما دخل عليه سديف مولاه وأغراه بهم فى قوله :

لا تُقيلنّ عبد شمس عثارا واقطعنْ كل رَقلة(١) وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها اللـــه بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءنى وساء سوائى قربهم من نمارق وكراسى

بل عطف عمر بن الخطاب على الحُطيئة وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

---

(١) الرقلة : النخلة الطويلة التى تفوت اليد .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ضمر الحواصل لاماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه فى قتله أخاها النضر بن الحرث على رحمه منه واتصال نسبه به :

أمحمد ياخير صنو كريمة فى قومها والفحل فحل مُعرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال - وهو من لاظنة(١) فى عدله ولاريبة فى حكمه - : لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته .

لامؤثر فى نفس الإنسان غير الشعر ، وما خضع الإنسان لشىء فى جميع أدوار حياته إلا للشعر ، وللشعر الفضل الأول فى نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال ، ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً ، أما الشعر الناطق فقد عرفته ، وأما الشعر الصامت ، فهذه التماثيل التى يراد بنصبها تمثيلُ حياة عظماء الرجال بعد مماتهم شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التى تصور خواطر القلوب

---

(١) الظنة : التهمة .

ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب فى العاشق وعاطفة الحماسة فى نفس الجندى شعر ، وهديرُ الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلامُ الليل شعر لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف أوراق الأشجار شعر لأنه يمثل المناجاة فى مواقف العشاق ، وبكاء الحمائم شعر لأنه يمثل لجعة البين ولوعة الفراق .

تلك النغمات الشعرية التى نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة أخرى ، هى التى زَخرفتْ لنا هـذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها وولعنا بها وحرصنا عليها وأعددنا العُـدد للبقاء فيها والسكون إليها فكتبنا ، ودونا وألفنا واخترعنا وتعلمنا فعلمنا ، وبنينا فشيدنا وغرسنا فجنينا ، وعملنا فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا ، وأملنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا .

فكان الشعرُ سر هـذه الحياة وعلة هذا الوجود ، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحه ولا يطيب لنا العيش إلا فى جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد . ولنكبرْهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، وأفلاك كواكب العلم والفضل ، وهم الينابيع الصافية التى يترقرق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفئدة والقلوب فيملؤها سعادة وهناء .

كلمة فى التعريب[١]

« لحافظ أفندى ابراهيم »

هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه .

ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه ، ولو أن لى قلماً من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت إلى لباب مُصاصها[٢] وأخذت منها حاجتى لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء فلقد كنت أنظر فيه نظر المنجم فى الميقات ، واستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى إذا نفذ الفكر إلى ماوراء سطوره واهتدى الخاطر إلى مكامن حكمه

---

(١) هذه الكلمة هى مقدمة كتاب البؤساء .
(٢) مصاص الشىء : خالصه أو سره .

دعوتُ إلىَّ أم اللغات وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية ، وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت إلى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الإفرنج فإذا شمَست(١) إحداهما وأزور جانبها أغريت بها سلطان العقل فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكبُ الصعبة حتى تسكن إلى أختها وترتاح إلى جوارها . ولم تزل تلك حالى أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن وأمشى بينهما مشية الحكيم فى الصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان . وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة(٢) واحتوت بدوريهما هالة وخلعت الأولى على الثانية جلالها وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المبانى الأفرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين وجندرها الذوق الشرقى وهى تسكن فى هذه المعانى العربية .

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شىء من مؤلفات ذلك الحكيم وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر الذى كنتُ بينا أراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذا هو يدارج النمال فى مدابها ، وبينا ألمحهُ بين ذروة العلم وشرفة القصر إذا هو بين قاع البحر ، وعقيق النهر . فكم أفلتَ من هجيرة ، واختبأ فى خميلة . فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة إلى تراوح النجم فى الروضة ،

---

(١) شمس : امتنع وأبى . (٢) الطفاوة : الدارة حول الشمس أو القمر .

ومن التردد بين زفير العاشق وحرقتـــه إلى التمشى بين نفَس الحبيب وريقته .

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والأمثال فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كايصدح(١) المطر، ويستهبطون الحكم من سمائها فيسكنونها بين سطورهم وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو إلى العظة ، وتصفح(٢) النفوس عن ركوب سبل الغواية .

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص فكان مثله فيه كما قال عن نفسه المنجم الذهبى لا تصل الأيدى إلى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عداً .

وقد خار الله لى(٣) أن أعربه فاستعنته فأعاننى واستهديته فهدانى

---

(١) أخرجها مثلا، وكان من وساوس العرب إذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم إلى خيمته أو عطنه فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها رجاء أن يخطىء المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة .

(٢) صفحه عن حاجته : رده .

(٣) يقال : خار الله له فى الأمر ، إذا جعل له فيه خيراً .

وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم وحاولت أن أصل بها تلك الرحم التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الإتقان وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها .

أرأيت أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم بنفسك وأنت تذوق حلو تركيبه وتستمرىء لذة أسلوبه أن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك إليك ؟ فسقياً لتلك الأقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت ، وواهاً لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ، وعربى يعمل على كيدها .

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم رأى هذه العادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدراً قد ابتذلته الأقلام وستراً قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبوراً وخاطوا لها من تلك الصحف أكفاناً وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً . وماهو إلا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر . اللهم إن هذا خذلان منك فأدركنا برحمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام وأنا لا اعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات . إلا ما وقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت إليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية . أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أوليست رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم أيدعى البعير وهو ذلك المركب الخشن بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفاً فى هذه اللغة فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامى الماء والفت بلا إدام(١)

وهو فوق راحلة ظالع(٢) على قتب يكاد يُدمى عِجانه(٣) تحت شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

---

(١) تقول العرب : الأبيضان عن الماء والفت ، والأحمران عن اللحم والخمر
(٢) ظلع البعير : غمز فى مشيته . (٣) عجان الرجل : ما تحته .

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأكناف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ونتبوأ أريكه «الأوتومبيل» تحت ذلك الظل الظليل ، فى نخارف(١) ضفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له إسما يدل على مسماه ولا مرادفاً فى اللغة يؤدى معناه .

نخذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية .

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم إليه . وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين .

---

(١) مخارف : جمع مخرفة ، وهى المتنزه .

الشـــــــعراء المعاصرون

«لخليل مطران»

إسماعيل باشا صبرى :

أكثر ماينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه .

ولما كان لاينظم للشهرة ، بل لمجاراة نفسه على ماتدعوه إليه ، فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنـَةٌ بمثل ما تُنطق لفظة «ايه» مستطيلة ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقـِصد قصيدة وهو نادر .

شديد النقد لشعره كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام على مايريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه .

وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيـَجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه إطلاقَ زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتممة ، شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان .

ذلك هو الشعر للشعر .

أحمد شوقى بك :

ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم فى المركبة وفى السكة الحديدية وفى المجتمع الرسمى ، وحين يشاء وحيث يشاء . ولا يعرف جليسهُ أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرّها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة .

فإذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعادته فى الحديث .

ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ، ولو بعد أيام طوال ، عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ما تمّ منه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمره .

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة .

يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبزّهم(١) ، لا يجهد فكره ولا يكده فى معنى أو فى مبنى .

فأما المعنى فيجيئه على مرامه ، أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين

---

(١) بزه : غلبه .

الآداب فى لغات الإفرنج والأعراب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته فى صنوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب .

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول . ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبى ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار .

وفى المجموع تجد صفة عامة للنظم وهى أنه نظم شوقى .
ذلك شعر العبقرية والتفوق .

حافظ إبراهيم :

يقول الشعر فى كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طلباً لتلك الخلوة ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به .

يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره . يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات .

يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه آمناً

أن تهش عزيمته دون الإجادة بعد ذلك عالماً أن الكلام لابد أن يأتيه في أي مقام طيّعاً ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها .

إذا صب البيت في قالب من العروض أعاده نغماً على سمعه مستشيراً بذلك ذوقه عن طريق أذنه وطالما صدقته الأذن بنصيحتها أما تغنّيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وطريقته أن ينطق بالكلمات ملحنة تلحيناً ساذجاً من إطالة في الحروف المعتلة ورجفة في القرار كرة أربعة أنفاس وتقتضب .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى، وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنىً ، فإذا فاته الابتكار حينا في التصور لم يفته الابتكار في التصوير .

أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ماشاء .

كبير الآمال عاثر الجد، تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مسحة من الشكوى وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار الكامنة في غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحراً .

محمود باشا سامى البارودى :

أدركته وقد عاد من منفاه . وكان أول معرفتى به أن زرته مصاحبة لصديقه ومريده الشاعر الناثر محمد بك إبراهيم هلال .

دخلنا عليه وهو فى صدر مجلسه فحيانا بذلك اللطف الذى كان لايفارقه الوقار، ولاتثبت معه الكلفة وكان لى معه بعد ذلك ودٌّ وعهد .

واتفق أن جئته ذات يوم ومابيننا ثالث فتطارحنا الشعر وتباحثنا فيه ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما فاستوى يفكر .

استوى ساكناً ساجياً مسنداً ظهره إلى الحائط . وفكر غير منقبض المحيا ولا معنت الملامح متهللة سماحةً وجهه اللامع بأنوار الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة وقتم الناظرتين السوداوين اللتين تحجبان عينيه .

مرت به وبى دقيقة وهو متمكن فى تأمله وأنا مسترسل مع خاطر أخطرتهُ فى قلبى رؤية الرجل على هذه الحال . فخيل لى أننى لدى تمثال من تلك التماثيل التى أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم وتبدلت فى ذهنى الناظرتان السوداوان بالظلين الذين يحيطان بالعيون المطبقة فى تلك التماثيل .

وعاد إلى وهمى استطراقا قوة ما أبدعوه فى تلك الأنصاب حتى أعاروا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية .

وبينما أنا مستغرق فى الحواس بتلك الذكرى إذ تحرك الرجل

تحرّك من يعالج معنى مستصعباً فتنبهت تنبه دهشة كأنى بالتمثال وقد تحرك .

وفى تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل وذلك رسمه وتلك بشرته البيضاء ليس بعربى التبعة وقضيت عجباً لآية البيان التى تنتفى عندها فروق الأصول والفروع والأمكنة والأزمان .

أما شعره فهو بجملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار قليل وإحساس فياض .

اختارَ له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على وحى نفسه ـ ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع ـ فافتن حتى أنسى الفن ، وجوّد حتى أذهل عن المعنى .

فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع لا يبتئس حين يلتبس عليه فهم الألفاظ إذا استمر النغم على نظامه وإتقانه بل يستمر فى طربه ويترقى فيه إلى أن يخلق لنفسه شجوناً حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة .

ذلك كان مذهبه فى الشعر وتلك غايته منه ، ولا تنس له فضلاً جديراً بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة بمعنى أنه أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين . وما أبرّ قريضه لقريض جيله . فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صُعُداً إلى عهد أرقى أزمنة العرب فهى كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخر كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختبار ولا نسق ولا هندام .

الخلاصة أن المرحوم البارودى كان فى الطبقة الأولى بين شعراء العرب وكان قلبه كلفاً بالنغمة وذهنه منصرفاً إلى الصناعة كما يدل على ذلك منظومه وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوقين . فإنه لم ينتق منها إلا كل ماحسن لفظاً ومعنى أو حسن لفظاً ، وأهمل ماحسن بمعناه دون مبناه .

فشعره إنما هو شعر الصناعة والإيقاع .

الشيخ إبراهيم اليازجى :

هو أستاذى بعد المرحوم أخيه الشيخ خليل قرأت عليه أخريات الصحف فى كتب البيان المتداولة يومئذ فى المدرسة البطريركية ببيروت وذلك أن أخاه كان قد أصيب بالعلة التى مات بها فحل هو محله إلى نهاية تلك السنة التى كانت آخر عهدى بطلب العلم فى المدرسة .

راعنى الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله ، وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلا ، ولا أبالغ بقولى إنه إذا كان الإنسان فى ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوباً . بل أقول ولا أبالى عاقبة التصريح على سمعته إن كان ما تمنيت على الله أن يزيده فى مناقبه ومحامده هو خلة العفو . فلقد كان منتقما لشرفه وشرف بيته ، ينتقم مدافعاً

لامبادئاً وإذا ضرب ضرب بتؤدة وتبصر ناظراً إلى المقاتل وقلما تصدى لخصم إلا تركه صريعاً أو جريحاً جرحا مشفيا(١) .

على أنه لم ينبر مرة لأحد إلا عن عدل وحق .

كان للشيخ مذهب عام فى شعره ونثره وسائر مايتولاه من الأعمال وهو مذهب الإتقان .

لا يخلق جديدا ولكنه يتقن مايصنعه الى حد أنك تعزوه اليه وتعرفه بطابعه .

ولهذا لم ينظم مرتجلا . ولم يكتب إلا محتفلا(٢) .

زرته أحياناً وهو يصنع آباء الحروف المطبعية المتداولة الآن فى مصر والشام وكان ينحتها من الفولاذ .

وزرته أياما وهو يضرب العود ويضع للأنغام العربية علائم خاصة بها كالعلائم التى تقرأ بها الأنغام الإفرنجية .

وزرته مراراً وهو قد فكك قطع ساعته بعضها من بعض ليصلحها، وزرته آونة يعالج الرسم الشمسى وآونة أخرى يرسم بالقلم الفحم صديقاً له .

وزرته فى الأكثر وهو ينظم أو ينثر واقفاً تجاه منضدة - كذلك كان شأنه - والصحيفة أمامه على درج مائل .

---

(١) يقال : أشفى المريض على الموت ، إذا قاربه .

(٢) احتفل بالأمر : أحسن القيام به .

فى كل هذه الأحوال كنت أجده على مثال واحد من شدة التفكير والتدبير وبطء الحركة وجمود المحجرين مع غرابة السطوع فى إنسانيهما حتى لتكاد تحس بانبعاث الأشعة منهما متجمعة .

كان أثناء نظمه لا يتقلقل مكانه إلا لمراجعة كتاب ، وتحقيق لفظة والتحقيق خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه .

إذا نظم البيت خطه ذلك الخط الجميل المصوغ صياغة الجمان الدقيق . وقد يقلب الصحيفة فى يده كأنه يريد أن يرى فى سياق البيت واختيار مفرداته مثلما يراه من الجمال فى رسم حروفه وهكذا إلى أن يتم القصيدة .

فإذا أتمها وأطلعت عليها رأيت فيها من المتانة ووضع الكلم فى مواضعها وفصاحة الأسلوب وسلامة التركيب والجزالة أو الرقة كل فى المكانة اللائقة لها وتجافى الضرورات وتوخى المستحسن من المألوفات مالا تجد مثله فى قصائد غيره ووجدت على الجملة وفى التفصيل لمعان الصقل .

وأكثر مبتكره لفظى يفاجئك بالمفردة التمثيلية أو بالعبارة التصويرية فيريك أبعد ما يرمى إليه فكرك من قصده ويعجبك ويبهرك .

على أنه أقل من الشعر لأن إباء نفسه حمله مع الأيام على التيار الذى دفعته فيه ابتغاء لرزقه وما كان أعيفه لمال لا يصيبه جزاء وفاقا لحقه .

وأصلح تسمية عامة لشعره فيما أراه هى تسميته بشعر الإتقان .

السيد توفيق البكرى :

شغف كلف بالغريب من ألفاظ اللغة ، أذكر أنه بعث فى صباه إلى أحد كبراء الشام بكتاب مجاملة فخار فى حل رموزه وجاءنى وأنا يومئذ فى المدرسة يستعين على فهم ذلك الكتاب فاستعنا كلانا بالمعجم

وما زالت هذه حاله إلى الآن سواء فى نثره أوفى شعره . على أن فى ذلك عجباً لأن الشيخ ممن يشاورون ولكن يغلب على الظن أن ثقاته الذين يرجع إلى رأيهم من مثل العلامة الكبير الشنقيطى قديماً وسواه حديثاً إنما هم جميعاً من المشايخ الذين يمر بهم العصر بما فيه من معجزات الماء والنار والكهرباء والنور وبما يفتن العقول ويأخذ بالألباب من كل جميل النظام شائق الهندام بديع التجزؤ والالتئام كما تمر بالبدوى المقيم فى الصحراء خيالات الجن وطمطانيتهم فى أضغاث الأحلام .

السيد مقل يحول الحول أو الحولان فيقصد قصيدة ومن ، لطائفه أنه رأى يوما عيون مىّ فى باريس ومىّ على ما هو معلوم اسم أعرابية بنت أعرابية إلى قحطان من الأسماء التى كان يذكرها شعراء العرب حقيقة أو عارية .

أما نظمه فمتين وله فيه نظرات إلى زمانه ، لكنها أشبه شىء بنظرات موجهة من عهد عهيد(١) إلى عهد جديد .

---

(١) العهيد : القديم العتيق .

ليس له فكر عام ثابت يتجه إليه ولو التفاتاً فى أكثر ما ينظمه كما يلتفت « حافظ » إلى اجتماعياته و « شوقى » إلى خلقياته فهو يقول إجابة لدعوات الطوارىء ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا إنما أشرنا إلى انتفاء الجامعة التى تجمع ولو بصلة ضعيفة بين أقسام شعره لأسباب منها أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق وكان فى وسعه أن يحل فى الرتبة الأولى من شعراء زمانه لو أراد أن يكون من زمانه ولكنه انتهى إلى عصر آخر فلم يبلغ ولن يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاعا وفطاما وعادة يقظة ومنام وعشرة ومعاش . ومنها أن السيد طالع شعر الإفرنج وعلم منه المهمة العليا التى ينتدب لها الشاعر لا بين أمة منفردة بل بين الأمم جمعاء أحياناً . ومنها أن سماحته أدرى بأن الشعر فى بلد يحتاج إلى التربية والتأديب كمصر وإذا لم يكن إلا طوائف أسطر ترسم مقسومة إلى أشطر ففضل الشاعر رب المقاصد والمعانى على الوزان الناظم مقطع عروض الكلام ليس بالكبير وهو إذ أبى يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير .

ليسامحنا السيد فيما نذكره له فما هو - يعلم الله - قصد إحلال له فى غير محله بل توسل إليه ، وفى طاقته أن يجيب بالرقى ولو شق الصعود إلى الأوج الذى مهد له سبيله من زان فطرته بذلك الذكاء الباهر . والفكر الحاضر ، ويسر له الاطلاع على كثير . وأعفاه من المعاذير .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع فى معناه مقالا لقائل ولا مجالا لجائل . فلو جارى فى كثيره قليله لأصبح قطباً من أقطاب الزمان . فى الجمع بين البلاغة والبيان .

أما وطريقته العامة ماوصفناه فالكلمة التى تغلب فى وصف شعره أنه فى القرن الرابع عشر المحمدى شعر البعثة الجاهلية .

اللغـة والعصر

« للشيخ إبراهيم اليازجى »(١)

لم يبق فى أرباب الأقلام ومنتحلى صناعة الإنشاء من هذه الأمة من لم يشعر بما صارت إليه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة أهلها والعقم بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب الكتاب والمعربين وأصبحت الكتابة فى كثير من الأغراض ضرباً من شاق التكليف وبابا من أبواب العنت . واللغة لا تزداد إلا ضيقا باتساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن فى المخترعات والمستحدثات إلى أن كادت تنبذ فى زوايا الإهمال . وتلحق بما سبقها من لغات القرون

---

(١) الشيخ إبراهيم اليازجى : هو أكبر عالم لغوى نبغ فى العصر الحاضر ، واتفق له مالا يتيسر إلا لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء فهو فخر سوريا خاصة والعرب عامة ، ولو أن الله أبقاه للغة العربية لنالت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً .

الخوال . ومست الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثلم قبل تمام العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذن العصر سبحان من تفرد بالبقاء ، ويختم على معجماتها بقصائد التأبين والرثاء .

تلك هى اللغة التى طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر الألسنة مادة وأوسعها تعبيراً وأبعدها للأغراض مُتَناوَلا وأطوَعها للمعانى تصويراً ، قد أفضت اليوم إلى حال لو رام الكاتب فيها أن يصف حجرة منامه لم يكد يجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة فضلا عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء . ومنازل المترفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغنّاء ، وما ثمّ من آنية وأثاث وملبوس ومفروش وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة مما لا يجد لشىء منه اسما فى هذه اللغة ولا يكون حظ العربى من وصفه إلا العِى والحصر وطى لسانه على معان فى قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق ولا يجد سبيلا إلى تمثيلها باللفظ كأن المقاطع التى يعبر بها عن هذه المشخصات لم يُخلق لها موضعٌ بين فكيه . وليست مما يجرى بين لهاته وشفتيه فعاد كالأبكم يرى الأشياءَ ويميزها ولا يستطيع أن يعبر عنها إلا بالإشارة ولا يصفها إلا بالإيماء .

وياليت شعرى ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ورأى ما ثمةَ من المسمّيات العضوية وغير العضوية من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعاين ما هناك من

الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات وما تتألف منه من القطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات .

ثم ماهو فاعلٌ لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية والفنون العقلية واليدوية وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التى لاتغادر جليلا ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المخصوص .

لاريب أن الكثير من ذلك لايتحرك له به لسان ولا يعهد له بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ولا يغنيه فى هذا الموقف ماعنده من ثمانين اسما للعسل ومئتى اسم للخمر وخمسمائة للأسد وألف لفظة للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلاف للداهية وما يفوت الحصر لشيء آخر حرص مؤلف القاموس على استقصاء ألفاظه حتى لم يكن يذكر مادة إلا وفيها شيء يشير إليه ويدل عليه .

على أن اللغة مرآة أحوال الأمة وصورة تمدنها ورسم مجتمعها وتمثال أخلاقها وملكاتها وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب وإنما تضع منها على قدر ماتقتضيه حاجاتها فى الخطاب ومايتمثل فى خواطرها أو يقع تحت حسها من المعانى . ومعلوم أن العرب واضعى هذه اللغة كانوا قوماً أهل بادية بيوتهم الشعر والأديم ومفرشهم البارى

والبلاس(١) ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم الرحى والقدر وآنيتهم العقب والجفنة إلى ماشاكل ذلك مما لايكادون يعدونه فى حل ولاترحال فأين هم ومانحن فيه لهذا العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار فى الترف واليسار وكثرة مابين أيدينا من صنوف المرافق وأنواع الأثاث والزخارف ومانحن فيه من التفنن فى أحوال المجتمع والمعاش فضلا عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسط فى مناحى العلم والصناعة مما كان أولئك بمعزل عن جميعه إلا ماحدث بعد ذلك فى عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنا أكثره وماكان فيه لو بلغ إلينا إلا غناء قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم وضيق مضطرب الحضارة عندهم وما نجد فى ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن فلا يتوهمن متوهم أن ذلك وارد على اللغة من هرم أدركها فقعد بها عن مجاراة الأحوال العصرية وأناخ بها فى ساقة الألسنة الحالية فإن معنى الهرم فى اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معان قد خلت ألفاظها عنها ثم تضيق أوضاعها عن إحداث ألفاظ تؤدى بها تلك المعانى فيطرأ على اللغة النقص حيناً بعد حين إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها ولاتبقى صالحة للاستعمال وحينئذ فلا يبقى إلا أن يلقى حبلها على غاربها أو يستعان بغيرها على سد ماعرض فيها من الخلل بما يغير من ديباجتها وينكر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن وتصير على الجملة

---

(١) البلاس : البساط من شعر .

لغة أخرى، وليس بمنكر أن ماوصفناه من هذه الحال يشبه فى بادىء الرأى ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ومالم نزل ننعاه عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، إلا أن ذلك إذا استقريت أوجهه وأسبابه وسبرت غور اللغة فى نفسها وقست مبلغ استعدادها علمت أنه ليس منها فى شىء وأيقنت أنها لاتزال فى ريعان شبابها وطور ترعرعها وأن فيها بقية صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادة ولكن ما أدركها من ذلك وارد من قبل الأمة وتخلفها فى حلبة الحضارة والمدنية إذ اللغة بأهلها تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم وإنما هى عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدو ألسنتهم مافى خواطرهم ولا تمثل ألفاظهم إلا صور مافى أذهانهم ، وبديهى أن اللغة لم توضع دفعة واحدة، وإنما كان يوضع منها الشىء بعد الشىء على قدر ماتدعو إليه حاجة المتكلمين بها وقد اختصت هذه اللغة بمزية عز أن توجد فى غيرها وهى أن أكثر ألفاظها مأخوذة بالاشتقاق اللفظى أو المعنوى بحيث صارت إلى ماصارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة على كونها من أقل اللغات أوضاعاً إلا أنها من أكثرهن صيغاً وأبنية وهو السر فى قبولها هذا الاتساع العجيب فضلا عما فيها من تشعب طرق المجاز على ماسنعود إلى بيانه بالتفصيل .

وأعتبر ماذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية وفى صدر الإسلام ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء

من بنى العباس بعد سكون الغارات ، واستتباب الفتوح وتنبه الأمة لطلب العلوم وتبسطها فى الفنون والحضارة بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً ولا اضطروا فيها إلى وضع جديد ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التى وضعتها العرب فاشتقوا منها مالا عهد به للعرب على وجهه الذى نقلوه إليه وتتكلم به أصلا حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التى اجتاحوها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك كله ماستنبطوه بأنفسهم واللغة مشايعة لهم فى كل ماأخذوا فيه لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا من شكا منهم عجزاً ولا تقصيراً إلى أن أدركهم من تبدل الأطوار وغارات الأقدار ما وقف بهم عند ذلك الحد فوقفت اللغة عندما نراه فيما وصل إلينا من كتبهم وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمة وتتابعت دواعى الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج الرياح فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود منها اليوم لايقوم بخدمة أمة متمدنة ولا هو أهل لأن يُبلغَ به مامنزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمة هرم فإنما هو فى الأمة لا فى اللغة لأن ماعرض لها من الهجر والإهمال غير لاحق بها ولا مُلحق بها وهناً ولا عجزاً وإنما هو عجز فى ألسنة الأمة ومداركها وتأخر فى أحوالها واستعدادها ولو صادفت من أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السعى

فى سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصر عن مشايعتهم فى كل مافاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم الى مجاراة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك لم يزد فيها حرف بل لم يكد يحفظ منها مايزيد على الحوائج البيتية والسوقية على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على أهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوى والأكار وما دامت المعانى التى يعبر عنها باللغة معدومة فلا سبيل إلى بقاء الألفاظ الدالة عليها إذ اللفظ إنما يتخذ للعبارة عن الخواطر التى فى النفس فلا يكون إلا على قدرها بالضرورة ، وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون بعضه بالإحراق كما تم فى مكتبة قرطبة وكأن هذا فى مقابلة ماوقع من مثله بالإسكندرية وفارس ... وبعضه بالاجتياح والنهب فلا بقى فى مكانه فينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذى نهبه لجهله قيمته ، وبقى الشىء اليسير نجده اليوم فى مكاتب الأعاجم وأكثره مما اشترى من أيدينا بالذهب ... فلا غرو أن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهاب هذه اللغة من ألسنة الأعقاب حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها وتعهدها بالتجديد والإحياء لما وجد منها فى البلاد إلا الشىء النزر لا يعدو فى الغالب علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواه . على أنك لو طفت اليوم فى جميع أنحاء البلاد التى كانت مباءة

للعرب ومعرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكد تجد موضعا تتوسم فيه آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التى هى مستودع ذخائر السلف ومجمع شمل علومهم فى شمل بقاياهم والتى إن كان قد كتب لهذه اللغة أن تستأنف البقاء مدة أخرى فإن مبعثها إنما يكون من ناحيتها وعلى أيدى رجالها وإن سبقهم إلى إحياء رسومها بعض المجاورين لهم ممن اصطبغوا صبغة العرب وليسوا منهم فى شىء وشتان بين من يُعنى بالأمر لضرورة أحوجته إليه ومن تكون فائدته له وخسرانه عليه .

وقد كان عقد فى هذه العاصمة - أعنى مدينة القاهرة - مجتمع لغوى تطالت إليه أعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقع المتأدبون منه فوائد جمة مما لم تبرح النفوس متطلعة إليه والأمانى معقودة عليه فاعترض دون تلك الثمرات ما عهد فى أهل الشرق عامة والمصريين خاصة من وناء الهمم وتخلف الثبات على حين لم يجزوا فى هذا الشوط إلا خطوات يسيرة أبانوا فيها عن رأى فطير وبضاعة مزجاة وصدرت الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منها ببلة بل تجرعت من اليأس ما زادها على غلتها غلة .

ولا بأس أن نلم فى هذا المقام بطرف من تاريخ هذا المجتمع والكشف عن شىء من أعماله بياناً للغاية التى جعلوها نصب أبصارهم واستنهضوا لها هممهم ، ثم المبلغ الذى أدركوه من ذلك والأمد الذى استولوا عليه منه لا نريد بذلك تسوئة لهم ولا غضاً منهم ولكن الإشارة إلى أوجه التقصير فيما هموا به من هذا الأمر الخطير والبحث

فى الخطة التى ينبغى سلوكها للوصول إلى المقصد الذى تمثل لهم بعد ما أوضحنا من الحاجة الماسة إليه وما يترتب عليه من الفوائد التى أيسرها تدارك اللغة من السقوط ولحاقها بلغات الغابرين

لاجرَم أن الأمور إنما تستتب بالرأى قبل العمل والحازم من إذا همَّ بمفعول نظر فى غاياته قبل مبادئه حتى يكون مدخله فيه تسديداً ومخرجه منه حميداً . فأول مايؤخذ عليهم فى أمر هذا المجتمع أنهم حصروا انتخاب المشتغلين به فى عداد رجال مصر وحظروا أن يشاركهم فيه غيرهم من سائر الناطقين بهذا اللسان وهو أمر قد خفى علينا وجه الحكمة فيه بل لم نجد لهم عذراً يخرجهم من المؤاخذة عليه، فإنه إن كان ذلك عن مزيد اعتداد بأنفسهم فى كفاية هذا الأمر حتى أداهم إلى ترك الاعتداد بغيرهم فهى السوءة التى لايسترها إحسان ولا يشفع فيها فضل ولا مزية، بل هى السقطة التى تقضى وحدها على عملهم بالحبوط ومساعيهم بالإخفاق . وذلك أن ماعقدوا العزم على إحداثه فى هذا المجتمع من الزيادة والتبديل فى ألفاظ اللغة أمر لا يستتب نفعه ولا تتحقق ثمرته إلا بأن يعمّ استعماله بين المتكلمين بها وتتداوله ألسنتهم وأقلامهم حتى يلحقوه بأصل اللغة ويعتبروه فى جملة أوضاعها . وعلى ذلك فمن لم يدعوه من أولئك إلى مشاركتهم فى الرأى ومشاطرتهم وجه الحكم فقد دعوه بلسان حالهم إلى متابعتهم فيما يرون والنزول على مايحكمون وذلك أمر لاسلطة تعضده ولايتسنى إلا برضى من يدعونه إليه وارتياحه إلى موافقتهم عليه وهيهات أن

ترضى بذلك منهم وهم قد جعلوا بريدهم إليه ماعلمت من الاستخفاف والازدهاء . . وإن كان ذلك طلبا للأثرة والانفراد بالمزية على غيرهم فهو أمر فى غير محله أيضاً وليس من النصفة ولا السداد فى شىء ، وذلك : أما أولا فلأنه لو كان الأمر الذى اجتمعوا عليه من شؤون مصر الخاصة لم يكن فى ذلك لأحد حجة عليهم ولا حق المطالبة بالدخول معهم فيه ولكنه من الأمور الشائعة بين جميع الأمة على السواء ليس بعضها أحق به من بعض فانفرادهم به دون سائرها استبداد لا وجه له وداع إلى المنافسة والتخاذل ونقض عروة الوئام ، وأما ثانياً فلأن مدار العمل على سدّ ما طرأ على اللغة من النقص ووضع ألفاظ بإزاء المعانى التى حدثت فى الأعصر المتأخرة وهناك من الأوضاع والمصطلحات ما لو جُمعت مفرداته فى كل فنّ لبلغت أن تكون مجلدات كثيرة . ولا يخفى أن هذا من الأعمال التى لا يضطلع بها إلا العدد العديد فى الزمن المديد مما يدعو إلى تضافر الأيدى والاستكثار من العاملين مع مواصلة الجد وإدمان الاشتغال ، ثم هو مع ذلك ربما أتى علينا قرن بتمامه ولم نبلغ آخره ، بل كيف نبلغه ونحن لا نفضى إلى ذلك الزمن حتى يكون قد حدث من تلك الأوضاع إضعاف الموجود الآن . وبعد فإن نقل هذه الأوضاع إلى لغتنا لا يكفى فيه العلم بقوانين العربية والإحاطة بألفاظ منها نستظهرها من بطون الدفاتر بل من مقتضاه أن يكون أكثر المشتغلين به من العارفين باللغات المنقول عنها والمطلعين على علوم أربابها وصنائعهم وسائر

فنونهم ليكونوا على بينة من مواضع النقص المشار إليها وتحقيق المعانى التى ينبغى وضع ألفاظ لها مما يؤدى به المقصود على وجهه وليس فى مصر وحدها من هذه الطبقة الا رجال معدودون لا نحسبهم إذا كانوا قد جعلوا لهم مكاناً من هذا العمل كافين للاضطلاع به على طوله واتساعه وعلى ما يقتضيه من التفرغ وإدمان النظر : فقد كانوا والحالة هذه فى أشد الحاجة إلى أن يكون لهم فى كل قطر أناس من أمثال أولئك يؤازرونهم فى العمل ويكونون أعواناً لهم على النجح وكان يبقى لهم من المزية التى حرصوا على أنهم هم الشارعون فى تأسيس هذا المجتمع والداعون اليه وأن أرضهم ملتقى أشعته ومنبثق أنواره وهذا كاف فى باب الأثرة وهو مما لاينفسه عليهم منافس . وبالتالى فإنهم لو نظروا نظرة فى التاريخ لأرتهم مثال ماهم فيه بما يسفر لهم عن وجه الرأى وينهج لهم سبيل العمل إذ ليست هذه أول مرة عبر فيها على الأمة مثل ذلك ودعت الحال إلى الإحداث فى اللغة وإدخال شىء جديد بين أهلها . فكل يعلم ما فعل المأمون حين عرب كتب اليونان والفرس والسريان فى الطب والحكمة والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فإنه لما لم يجد فى الأمة من يضطلع باستخراج هذه الكتب إلى العربية لم يتوقف عن استدعاء قوم من نساطرة العجم ليتولوا نقلها له، لم يستنكف من ذلك ولا أنف من ببابه من العلماء الذين حشدهم إليه من أطراف البلاد - وناهيك بهم من كانوا - يشاركوهم فى العمل. وقد أفرد لهم مكاناً فى بلاطه ووزع تلك الأعمال بينهم على ما يحسنه كل

فريق منهم ثم جعل لهم يوماً فى الأسبوع يجتمعون فيه وتعرض أعمال المعربين على علماء اللغة فيقرون منها ماوجدوه سديداً وينظرون فى غيره مما لم يقع المعربون على وجهه فيصححونه .

أما ما كان من ثمرات هذا المجتمع فزبدة ما اتصل بنا أنهم عقدوا ست أو سبع جلسات استحدثوا فيها عشرين لفظة بإزاء عشرين كلمة من الألفاظ الأعجمية ولا بأس أن نذكر بعض هذه الألفاظ فى هذا الموضع تتمة لسياقة البحث .

فمنها قولهم « مَرْحى » و « أيحى » فى مكان « برافو » ، و « برحى » فى مكان « فى » وهى كلمات تقال الأوليان منها لمن أصاب المرمى والثالثة لمن أخطأه فنقلوها إلى مطلق معنى الاستحسان أو الاستهجان وقد تكلفوا فى هذه الألفاظ على ما نرى « وأبعدوا المرمى » مما لاحاجة إليه لوجود كثير فى كلام العرب من مشهور اللفظ ومأنوسه يغنى عن اجتلاب هذه الكلمات ونقلها عن مواضعها . فمن قولهم فى الاستحسان أحسنتَ وأجدت وأبدعت ولله درّك ولله أنت ولله أبوك وماشاء الله كان وكذا وإلافلا وما أشبه ذلك ، ومن هذا القبيل قولهم بخٍ بخٍ وبهٍ وزِهْ بكسر فسكون ؛ وهذه الأخيرة من مستدركات الزبيدى على القاموس نقلا عن الأغانى . ويقولون فى التقبيح سوْءة لفلان وقبحاً له وخزياً له وتباً له وأف له ولا أبا له وخسىء الأبعد وخزى ولا درّ دره ونحو ذلك ، وكلها من الألفاظ

الوافية بالمراد على خلوها مما فى تلك من الغرابة وما فى بعضها من الاستهجان فى السمع .

ومنها قولهم « عم صباحاً » « وعم مساءاً » فى مقابلة « بنجور » « وبونسوار » وهما مما لا داعى إليه أيضاً إذ لا أكثر من ألفاظ التحية عندنا فضلا عن أنهما من قديم اللفظ الذى قد أميت استعماله منذ أزمان مديدة فلا تقبلان فى هذا العصر . وبعد فلا نزيدهم علماً أن الذين يقولون بنجور وبونسوار ليس ذلك منهم عن افتقار إلى لفظ يرادفهما بالعربية فإن أجهل العوام يقولها فى تحية الصباح نهارك سعيد أو صبحك الله بالخير مثلا، وفى تحية المساء ليلتك سعيدة أو أسعد الله مساءك ونحو ذلك . ولكن الداء الذى أرادوا علاجه بهاتين العبارتين ليس من الأدواء التى تعالج من هذا الكتاب ولا التى ينجع فيها هذا الضرب من العقاقير إنما علاجه تلقين فتياننا حبّ الوطن وتنشئتهم على عزة النفس والاعتداد بحرمة الذات حتى لا تتسفل أهواؤهم إلى التشبه بغيرهم ممن ليسوا بخير منهم أحساباً ولا أشرف خلالا وقد بقى من أعراض هذا الداء ماتجد استعمال هذه الألفاظ فى جنبه سهلا نسأل الله أن يلهمنا رشد أنفسنا وهو ولىّ الهداية .

ومنها قولهم « نمرة » فى موضع « نومرو » وهذه لاتخلو من غرابة فإن كان القصد منها تعريب اللفظة أى تحويلها إلى صيغة توافق الأبنية العربية فهو مما سبقتهم إليه العامة يقولون كم نمرة هذا الثوب مثلا ،

وإن كان مرادهم أن النمرة لفظة عربية بهذا المعنى فلا صحة له لأن النمرة في اللغة النكتة في الشيء تخالف لونه كما يُرى في جلد النمر مثلا فكان الأولى أن يبحثوا عن لفظة عربية توافق المعنى وإلا فهذه كغيرها من الكلم التي كانوا يضعونها اتفاقاً من غير أن يطالبهم بها مطالب فلم يكن عليهم بأس من تركها وإرجائها إلى فتح جديد .

ومنها «الحرّاقة» في تعريب «التوربيد» قالوا: وهي أي الحرّاقة سفينة فيها سرام للنيران يُرمى بها العدو في البحر ولا يخفى أن هذه ليست في شيء من التوربيد إذ هو عبارة عن صندوق ونحوه من رقيق صفائح المعدن يحشى بالبارود ويرسل في قعر البحر حتى يصير تحت سفينة العدو ثم يفجر بنابض (زنبرك) أو سلك كهربائي فتنقذف السفينة صُعُداً . والتوربيد في الأصل اسم لسلك كهربائي من لمسه خدرت يده وتسميه العرب بالرعاد وهو اللفظ الذي استعمله بعضهم في تعريب هذه الكلمة ولعله أولى .

ومنها «الوشاح» اختاروه للتعبير عن «الكوردون» الذي يتخذ للسيف بجامع الهيئة على أنه ليس تعريباً للفظة الأعجمية إذ هي في الأصل عندهم بمعنى القوة من قوى الحبل ثم نقلوها وإن لم يظهر وجه النقل إلى هذا السفيف من منسوج الحرير ونحوه تشده النساء على أوساطهن ويزين به رؤوسهن وتُجمع به أطراف السجوف وكلل الأسرة ويتخذ منه نجاد السيف وغير ذلك، والوشاح لا يصلح لشيء

من المذكورات إلا للمعنى الأخير فهو أخص من اللفظة المعربة ومع ذلك فلا بأس باستعماله لهذا الموضع .

ومنها «الطنف» لما يسمى «بالبلكون» إلا أنهم فسروه بالسقيفة التى تشرع فوق باب الدار وهى غير البلكون على أن اللفظة أوسع مما ذكروا ويراد فيها أيضاً الجناح وهو أحسن لفظاً وأدل على المراد .

ومنها «المشجب» لما يقال له عندالعامة «شماعة» وهو بالافرنجية «بورت مانتو» . «وحصب الطريق بالحصباء» مكان قولهم «وضع فيها المكدام» . «والعطاف» و«المعطف» لما يسمى «البالطو» و«الپاردسو» كذا من غير تعيين والأظهر أن ما اخترعوه يوافق الأول وأما الثانى فأليق ما يسمى به الدثار فإن كان يُتقى به ماء المطر فهو الممطر والممطرة .

ومنها «البهو» بمعنى «الصالون» و«القفاز» بمعنى «الجوانتى» و«البطاقة» بمعنى «الكارت» و «الشرطى» و «الجلواز» بمعنى «البوليس» وهذه كلها مما سبقوا اليه .

وبقيت ألفاظ أخر أرسلت من عفو الذاكرة ولم ينضجها الفكر فلا نطيل باستقصائها والكلام عليها . على أنه مهما يكن من أمر هذه الكلمات فلم يكن من المتعين أن يكون كل ما يضعونه وارداً مورد الإصابة ولا ينبغى أن يتوقع مثل ذلك من أى قوم تعاطوا مثل هذا الأمر الدقيق على ما يقتضيه من الإحاطة وبعد النظر وكثرة التنقيب

فى أعطاف الحافظة وبين تضاعيف السطور ولا سيما أن تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد ثم تُنشر بلا بحث ولا تنقيح فلا عجب أن جاء بعضها مرمى للنقد . على أنهم لو مضوا على مابدأوا به من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتقييد لجاء فيما يضعونه فوائد لاتحصى ولخذموا اللغة خدمة سنية كانت تردها عليهم شكراً جزيلا وذكراً على الأيام جميلا ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات أن تشاغلوا بإنشاد القصائد وإلقاء الخطب ثم ختم المجتمع على هذا القدر .

ومهما يكن من أمر هذا المجتمع فقد مضى على وجهه ودرجت بعده الأيام ودبت الليالى والحاجة فى مكانها والرغبات متطالّة والخواطر هائمة والأقلام جافة واللغة على ما كان من عهدها لم تستغن بتلك الكلمات العشرين ولا وجد بعد ذلك من أجرى لها ذكراً ولا أخطر للنظر فى أمرها فكراً فكأنّ ذلك المجتمع إنما عُقد لتثبيط العزائم عن نهضتها وقطع آخر عرق من الأمل ، وكأن أربابه نفر من الأطباء اجتمعوا للائتمار على عليل فكان قُصارى مافى طبهم أن قضوا باليأس منه ثم خرجوا وهم يقولون : عظّم الله أجركم فى الفقيد .

فبقى الآن إما أن نسجل بموت اللغة وموت الآمال معها واليأس إحدى الغنيمتين ، وإما أن نستأنف العزم ونجدّد السعى فى إحياء ما اندثر منها وتدارك ماطرأ عليها من الثُلَم وهو مالا تزال الآمال فيه

منوطة بهم رجال هذا القطر إن نشطوا له وتفرغوا للاشتغال به وتنبهوا لمكان اللغة من الأمة وأنها هى عنوانها والفصل الذى تتميز به من سائر الأمم، بل اللغة هى الأمة بعينها فكما تشخص تاريخها وعلومها وعاداتها وعباداتها فإنها تشخص الأمة بنفسها وبها يشار إليها ويدل عليها وذلك فضلا عن أنها هى مجمع ألفتها والوصلة الحسية بين آحادها وجماعاتها فهى علة الضم الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية التى بها يستتب معنى المدنية ، وإذا تفطنت للمراد من قولهم الإنسان مدنى بالطبع شف لك عن حقيقة هذا القول وتبينت موضع اللغة من الحالة الاجتماعية. واعتبر ذلك فى الأمم الأوربية لهذا العهد فإنها على اتحاد أكثرها فى النحلة الدينية وما يصل إليها من لحمة النسب إنما تتميز الجنسية عندها باللغة وهى الفصل الفارق بين أمة وأمة وعليها مدار الوحدة الوطنية وصيانة المصلحة الأمية ومالم تتحد الأمتان منها فى اللغة لا يؤمن انتقاض إحداهما على الأخرى ولو اتحدت بينهما المصلحة الوطنية والجامعة السياسية . بل انظر إلى الناطقين بلساننا العربى فإنهم على تباينهم فى الأنساب والأديان والعوائد إلى مالا تجد له مثيلا فى العالم كله وعلى مابينهم من اختلاف الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية وتضافر دواعى الشقاق والافتراق لم تثبت لهم جامعة ينضمون بها ويتألفون حولها سوى اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو أشد اعتصاماً بها ومحافظة عليها ممن ورثها عن أوليته وانتهت إليه عن غير كلالة .

بل عندنا اليوم ماهو أبلغ من ذلك وهو ما نراه من كثير من فتياننا الذين يتلقون العلم فى المدارس الأجنبية فإنك تجد كل فريق منهم قد أشرب الميل إلى الأمة التى يدرس فى لسانها فمن تعلم فى المدارس الإنجليزية مثلا خرج ميله إنجليزياً وكذا من درس فى المدارس الفرنسوية أو الطليانية أو غيرها حتى تراه يباهى برجال تلك الأمة ويتبجح بأخبار ملوكها وكبرائها وفضائل أهل العلم والشعر منها ويقتبس كثيراً من أخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير أهلها ومن يقع فى نفسه منها موقعاً وربما أشرب عقائد بعض علمائها وفلاسفتها إلى غير ذلك مما لاتكاد تفرقه فيه عن أحد أفرادها بل ربما بلغ من بعضهم أن ينزع إلى اللحاق بجنسيتها والانتظام فى عداد آحادها فيطلب مشاركتها فى الوحدة الحسية بعد الوحدة المعنوية وهو نهاية ما يمكن تصوره من الشواهد فى هذا الباب .

وهذا الأمر مما تنبهت له الأمم الفاتحة من قديم واتخذته قاعدة تجرى عليها فى تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واتقاء سورة المغلوبين إذا حزبهم من ناحيتها ظلم أو سامتهم شيئاً من ضروب الخسف وحسبنا شاهداً عليه ماهو جار ليومنا هذا فى الجزائر وتونس من البلاد العربية حيث أهمل تعليم اللسان العربى فى المكاتب إلا بمقدار ما يتوصل به إلى تلاوة القرآن وجُعل كل ماسوى ذلك باللغة الفرنسوية حتى كادت العربية تتناسى فى تلك الأقطار ولم يبق منها

إلا ما يتداوله العامة من اللفظ المبذوء والكلم السوقى وغابت عنهم محاسنها وعلومها وتواريخها وآدابها وعلى الجملة فإنها صارت عندهم أمراً تافهاً لامعنى له ولا رغبة فيه وهى سائرة فى طريق الاضمحلال بما تغلب عليها من العجمة وشيوعها على ألسنة أهل البلاد وذلك فضلا عما يبهرهم كل يوم من اقتدار الفاتحين وما يرون من آثار سطوتهم ونفوذ شوكتهم وضخامة ملكهم وما لهم من ضروب التفنن فى العلم والاختراع مما تتعاظمه نفوسهم يوما بعد يوم وعن قليل ستصبح هذه اللغة عندهم كأن لم تغن بالأمس ولم تكن شيئاً مذكوراً . ولذلك كان من أوجب الواجب فى المحافظة على بقاء الأمة وصيانة الجنسية بينها إحياء لغتها بين عامة أهلها وتكثير سواد أهل العلم منها والتجافى بها ما أمكن عن لغات الأعاجم إلا الخاصة الذين عليهم المعوّل فى نقل علومهم إلينا ونشرها بلغتنا بحيث نلحق بهم فى الحضارة دون الجنسية ، وهذا إنما يتم اليوم بأن تنهض الأمة بنفسها لهذا الأمر الخطير ويتجرد له عقلاء سراتها وأهل العلم فيها لايتكلون فى ذلك إلا على أنفسهم ولا يصدرون إلا عن عزائمهم وإلا فإن استنامتهم إلى من سُلم إليهم قياد القلم وتهذيب الأمة فى القطر لايعد إلا ضرباً من التغرير بمصلحتهم والإعانة على اضمحلالهم . وما ظنك بقوم بعضهم مغلوب لسيطرة الأجنبى يعمل بما يوعز إليه لا بما يراه وبعضهم منقاد لسلطان التعصب وهو هادم لأركان العلم من قواعدها ذاهبٌ برسوم الجنسية من أصلها مُغرق لهذه الشرذمة الباقية فى لجٍ لا يُعرَفُ له درك ولا ساحل وبعضهم

مقيم فى ظلال الجهل والأمية لايميز الألف من الراء ولا التاء من الياء.
ثم ليعلموا أن العاملين اللذين يتنازعان الأمة لهذا الوقت لكليهما وجهة واحدة يلتقيان عندها وإن اختلف طريقهما وغرض واحد يرميان ليه وإن تباين موقفهما ألا وهو استئصال أرومة الجنسية والذهاب بآثار الوطنية فإن استيقظوا لما أرصد لهم وبادروا الأمر قبل موقعه والا فهذه لغتهم عن قليل ستسقط من عالم الأقلام وتستبدل برطانة أعجمية بل تصبح ألسنتهم أشبه بألسنة أصحاب الصرح وأشراطُ الأمر بادية من الآن فليعتبروها ، وإذا مضى على هذا زمن يسير بقيت اللغة محصورة فى المساجد والمحاكم الشرعية ولم تجدها فى المحادثات اليومية الا على ألسنة أقوام من الفلاحين وأهل البادية. لا يُطلق اسم العربى إلا على شراذم من أولئك ، وبئس الخلف .

وصف شعر شكسبير

« تعريب محمد السباعى »(١)

شكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر أداه الينا الحظ فى سكوت

---

(١) محمد السباعى : هو أحد كتاب هذا العصر الممتازين بالبراعة فى الترجمة من الإنكليزية إلى العربية المعروفين بالتمكن فى كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معاً إلا أنه فى ترجمته أميل إلى التندر بالغريب وتدوين التراكيب الجزلة منه إلى السلاسة والرقة ولعاً باللغة العربية وشغفاً بإحيائها؛ فمن لا ينظر إلى الكتابة بالعين التى ينظر بها إليها يرى فى كتابته أحياناً من التعقيد والمشادة غير ما يراه، أما كلمته هذه فهى مقتطفة من كتاب الأبطال لكارليل الذى ترجمه إلى اللغة العربية.

فتناولناه فى سكوت كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر والهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر .

من أسباب عظمة شكسبير براعة تصويره للأشخاص والأشياء ولا أحسب أن إنساناً يماثله فى تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة فإذا نظر إلى شىء لم ينظر إلى ذلك منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم لبه وكأن ذلك المنظور يتحلل أمامه فى ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه ونحن نسمى ذلك ابداعاً واختراعاً وخلقاً شعرياً وما هو لو تأملت إلا النظر الدقيق المستوعب للشىء المحيط بظاهره وباطنه .

ماروايات شكسبير الا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها ، وما صناعته بصناعة إنما هى وحى يتدفق به طبعُهُ عفواً ويهطل به خاطره سجا دراكا[1] .

إن شكسبير نای تتناوله الطبيعة فتترنم فيه بأشجى نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ، ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فى شكسبير هذا معانىَ جديدة وبياناً لألفاظ حياتهم .

كان لشكسبير حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشفُ عما كابده من غصص الزمن ، وتجرعه من مرارة المحن . وقد أفال الرأى من زعم أنه كان خلواً من الأسى صفواً

---

(١) الدراك : المتلاحق المتصل .

من القذى ، فأنى لرجل أن يصوّر أمثال هامليت وكوريالاناس وماكبث (١) وغير هذه من القلوب المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الألم .

اذا خيرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند نقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلاغنى لنا عن شكسبير . فسيجىء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين فى نواحى الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذى يضمنا جميعاً .

الشعر

« لمصطفى الرافعى » (٢)

أولُ الشعر اجتماع أسبابه . وإنما يُرجَع فى ذلك الى طبع صقلته

---

(١) أسماء أشخاص بعض روايات شكسبير .

(٢) مصطفى الرافعى : شاعر من شعراء العصر المجيدين ، وكاتب من كتابه المتأدبين ، ويذهب فى شعره مذهب شعراء المعانى كالمتنبى وابن الرومى وغيرهما من الذين يحفلون بجمال المعنى قبل جمال الأسلوب فإن صح له الأول لا يبالى بالثانى على أن له فى كثير من الأحيان خصوصاً فى النسب ما يعد فى طبقة الإبداع ، حسن تصور ، وبراعة نظم ، ورقة أسلوب .

الحكمة وفكر جلا صفحتَه البيان . فما الشعر إلا لسان القلب إذا خاطب القلب ، وسفير النفس إذا ناجت النفس ، ولا خير فى لسان غير مبين ولا فى سفير غير حكيم .

ولو كان طيراً يتغرّد لكان الطبع لسانه ، والرأس عُشه والقلب روضته ، ولكان غناؤه ماتسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء . وحسبك بكلام تنصرف إليه كل جارحة ، وتضم عليه كل جانحة ويُجنى من كل شىء حتى لتحسب الشعراء من النحل تأكل من كل الثمرات فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وكأنما هو بقية من منطق الإنسان اختبأت فى زاوية من النفس فما زالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد ذلك ألحانا بغير إيقاع . ألا تراها ساعة النظم كيف تتفرغ كلها ثم تتعاون كأنما تبحث بنور العقل عن شىء غاب عنها فى سويداء الفؤاد وظلماته لذلك كان أحسن الشعر ما تتغنى به قبل عمله وهى طريقة تفنن فيها الشعراء حتى لكان الحُطيئة يعوى فى أثر القوافى عواء الفصيل فى أثر أمه .

وترى المجيد من أهل الغناء إذا رفع عقيرته يتغنى ذهب فى التحرك مذاهب حتى كأنما ينتزع كل نغمة من موضع نفسه فيتألف من ذلك صوت إذا أجال حلقه فيه وقعت كل قطعة منه فى مثل موضعها من كل من يسمع فلا يلبث أن يستفزه طربه ، كأنما انجذب قلبه ، وتصبو

نفسه ، كأنما أخذ حسه ، لا فرق فى ذلك بين أعجمى وعربى . ومن أجل هذا ترى أحسن الأصوات يغلب على كل طبع ، وإنما الشاعر والمغنى فى جذب القلوب سواء ، وفى سحر النفوس أكفاء ، إلا أن هذا يوحى إلى القلب وذاك ينطق عنه ، أحدهما يفيض عليه والثانى يأخذ منه ، والويل لكليهما إذا لم يطرب هذا ولم يعجب ذاك .

والشعر موجود فى كل نفس من ذكر وأنثى ، فإنك لتسمع الفتاة فى خدرها ، والمرأة فى كسر بيتها ، والرجل وقد جلس فى قومه والصبى بين إخوته . يقصون عليك أضغاث أحلام فتجد فى أثناء كلامهم من عَبق الشعر ما لو نسمتهُ لفغمك[1] ، وحسبُك أن تكسر وسادك تتحدث إليهم فتراه طائرا بين أمثالهم وفى فلتات ألسنتهم وهو كأنما قد ضلّ أعشاشه ؛ ولقد نبغ فيه من نساء هذه الأمة شموس سطعن فى سماء البيان ، وطلعن فى أفق البلاغة ولا يزال الناس إلى اليوم يروون للخنساء وجنوب وعليّة وعنان ونزهون وولادة وغيرهنّ ، وبحسبك قول الشواسى : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأةً منهنّ الخنساء وليلى .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الإعراب لا يعرفها إلا من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام فكل إنسان ينطق به ولا يقيمه كل إنسان ، وأما ما يعرض له

---

(١) فغمه الطيب : سد خياشيمه .

بعد ذلك من الوزن والتقفية فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والإعراب . وإنك إنما تمدح الكلام بإعرابه ولا تمدح الإعراب بالكلام .

ولم أقرأ أجمع فيه من قول حكيم العصر ، وإمام الافتاء فى مصر (١): « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر » ولا فيما قالوه فى الشعراء أجمع من قول كعب الأحبار : « الشعراء أناجليهم فى صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة » .

ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء الا الأبيات يقولها الرجل فى الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو من قديم الشعر العربى :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلىً أبلته
أو كان قِرنى واحداً كفيته

وإنما قُصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف وهناك رفع امرؤ القيس ذلك اللواء وأضاء تلك السماء التى ما طاولتها سماء ، وهو لم يتقدم غيره إلا بما سبق إليه مما اتبعه فيه من جاء بعده ، فهو أول من استوقف على الطلول ووصف النساء بالظباء والمهى والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين النسيب وما سواه

---

(١) يريد به المرحوم الشيخ محمد عبده .

من القصيدة ، وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده وأجاد الاستعارة والتشبيه ، ولقد بلغ منه أنه كان يتعنت على كل شاعر بشعره .

ثم تتابع القارضون من بعده فمنهم من أسهب فأجاد ، ومنهم من أكب(١) كما يكبو الجواد ، وبعضهم كان كلامه وحيَ الملاحظ وفريق كان مثل سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها ، ولقد جدوا فى ذلك حتى أن منهم من كان يظن أن لسانه لو وضع على الشعر لخلقه ، أو الصخر لفلقه .

ذلك أيام كان للقول غرر فى أوجه ومواسم بل أيام كان من قدر الشعراء أن تغلب عليهم ألقابهم بشعرهم حتى لا يعرفون إلا بها كالمرقش والمهلهل والشريد والممزق والمتلمس والنابغة وغيرهم ، ومن قدر الشعر أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس . وأيام كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج . وكانت البنات ينفقن بعد الكساد إذا شبب بهن الشعراء .

ولم يترك العرب شيئا مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذنهم أو اعتقدوه فى أنفسهم إلا نظموه فى سمط من الشعر وأدخروه فى سفط من البيان حتى أنك لترى مجموع أشعارهم ديوانا فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدبهم وأيامهم وما يستحسنون ويستهجنون حتى من دوابهم

(١) أكب : انصرع .

وكان القائل منهم يستمد عفو هاجسه وربما لفظ الكلمة نحسبها من الوحى وما هى من الوحى ولم يكن يفاضل بينهم إلا أخلاقهم الغالبة على أنفسهم . فزهير أشعرهم إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب ، وجرير إذا غضب ، وهلم جرا .

ولكل زمن شعر وشعراء ولكل شاعر مرآة من أيامه فقد انفرد امرؤ القيس بما علمت واختص زهير بالحوليات واشتهر النابغة بالاعتذارات وارتفع الكميت بالهاشميات وشمخ الحطيئة بأهاجيه وساق جرير قلائصه وبرز عدى فى صفات المطية وطفيل فى الخيل والشماخ فى الحمير ، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره فيها فقال ما أوصفه لها إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً .. وحسبك من ذى الرمة رئيس المشبهين الإسلاميين أنه كان يقول « إذا قلت كأن ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لسانى » ولقد فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته ، وأسكرهم أبو نواس بخمرياته ، ورفت قلوبهم على زهريات أبى العتاهية وجرت دموعهم لمراثى أبى تمام وابتهجت أنفسهم بمدائح البحترى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم .

فمن رجع بصره فى ذلك وسلك فى الشعر ببصيرة المعرى وكانت له أداة ابن الرومى وفيه غزل ابن أبى ربيعة وصبابة ابن الأحنف وطبع ابن برد ، وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة الجهم وفخر أبى فراس وحنين ابن زيدون وأنفة الرضى وخطرات ابن هانىء ،

وفى نفسه من فكاهة أبى دلامة ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة وبين جنبيه قلب أبى الطيب فقد استحق أن يكون شاعر دهره وصنّاجة(١) عصره .

وأبرع الشعراء من كان خاطره هدفا لكل نادرة فربما عرضت للشاعر أحوال مما لا يعنى غيره فإذا علق بها فكرهُ تمخضت عن بدائع من الشعر فجاءت بها كالمعجزات وهى ليست من الإعجاز فى شىء ولا فضل للشاعر فيها إلا أنه تنبه لها ، ومن شد يده على هذا جاء بالنادر من حيث لا يتيسر لغيره ولا يقدر هو عليه فى كل حين .

وليس بشاعر مَن إذا أنشدك لم تحسب أن سمعَه مخبوء فى فؤادك وأن عينيك تنظر فى شغافه ، فاذا تغزل أضحكك إن شاء وأبكاك إن اشاء . واذا تحمس فزعتَ لمساقط رأسك ، وإذا وصف لك شيئاً هممت بلمسه حتى إذا جئته لم تجده شيئاً ، وإذا عتب عليك جعل لذنب لك ألزمَ من ظلك ، وإذا نثل كنانته رأيت من يرميه صريعاً لا أثر فيه لقذيفة ولا مُدية ولكنها كلمة فتحت عليها عينه أو ولجت إلى قلبه من أذنه فاستقرت فى نفسه وكأنما استقر على جمر واذا مَدح حسبت الدنيا تجاوبه واذا رثى خفت على شعره أن يجرى دموعا وإذا وعظ استوقفت الناسَ كلمته وزادتهم خشوعا واذا فخر اشتمّ من لحيته رائحة المِسك فحسبتَ أنما حفت به الأملاك والمواكب .

---

(١) الصناجة : طبل معروف

وجماع القول فى براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه ؛ فإن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

ولقد رأينا فى الناس من تكلف الشعر على غير طبع فيه فكان كالأعمى يتناول الأشياء ليقرها فى مواضعها وربما وضع الشىء الواحد فى موضعين أو مواضع وهو لا يدرى .

وأبصرنا فيهم كذلك من يجىء باللفظ المونق والوشى النضير فإذا نثرت أوراقه لم تجد فيها الا ثمرات فجة (١) .

ورأينا فى المطبوعين من أثقل شعره بأنواع من المعانى فكان كالحسناء تزيدت من الزينة حتى سمجت فصرفت عنها العيون بما أرادت أن تلفتها به على أن أحسن الشعر ما كانت زينته منه وكل ثوب لبسته الغانية فهو معرضها .

وهو عندى أربعة أبيات : بيت يستحسن ، وبيت يسير ، وبيت يندر ، وبيت يُجن به جنوناً ؛ وما عدا ذلك فكالشجرة التى تُنفض ثمرها ، وجنى زهرها لا يرغب فيها إلا محتطب .

أما مذاهبه التى أبانوها من الغزل والنسيب والمدح والهجاء . والوصف والرثاء وغيرها فهى شعوب منه وما انتهى المرء من مذهب فيه إلا إلى مذهب ولا خرج من طريق إلا إلى طريق ؛ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وما دامت الأعمار تتقلب بالناس فالشعر أطوار :

---

(١) الفج من الفواكه : الذى لم ينضج .

آونة تخطر فيه نسمات الصبا من مابين أفنان الوصف إلى أزهار الغزل ويتسبسب فيه ماء الشباب من نهر الحياة إلى مشرعة الأمل، وطوراً تراه جم النشاط تكاد تصقل بمائه السيوف، وتفرق بحده الصفوف، وحيناً تجده وقد ألبسه المشيب ثوب الاعتبار، وجمله بمسحة من الوقار وهو فى كل ذلك يروى عن الأيام وتروى عنه وما أكثر فنون الشعر إذا رويتها عن أفانين الأيام.

وأما ميزانه فاعمد إلى ما تريد نقده فرده إلى النثر فإن استطعت حذف شىء منه لا ينقص من معناه أو كان فى نثره أكمل منه منظوما فذلك الهذر بعينه أو نوع منه، ولن يكون الشعر شعراً حتى تجد الكلمة من مطلعها لمقطعها مفرغة فى قالب واحد من الإجادة.

ماهية اللغة

« لسعادة أحمد فتحى باشا زغلول » (١)

الفكر حركة نفسية يحتاج فى ظهوره إلى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالإرادة للتعبير عن حركة من حركات النفس . ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التى تدل على الأفكار وأن تلك الشارات تنقسم إلى قسمين : طبيعية وصناعية .

فالأولى : هى التى تصدر عن الذات من حيث هى : أى بمقتضى وجودها المادى . وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الأعضاء ومثل الأصوات التى ليست ألفاظاً والكلام أى المنطق .

---

(١) أحمد فتحى باشا زغلول : هو نابغة الأمة العربية علماً وفضلا ، ونادرتها ذكاء وفهماً ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة الفصيحة التى لا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ وما انتفعت هذه الأمة فى عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز فى كتابته بالبيان والإيضاح والدقة فى وضع الألفاظ بإزاء معانيها فلا يتجوز إلا قليلا ، ولا يتخيل إلا نادراً ولا يغرب ولا يتندر بحال من الأحوال .

والثانية : خارجة عن الذات وهى من تأثير الإنسان فى الماديات الخارجة عنه وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دواماً طويلا كان أو قصيراً كالأعلام والنقش والرسم والحفر والكتابة .

ومما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعى عام لكونه مفهوما بذاته من جميع الناس ومن الحيوان أحيانا كما هو الحال بالنظر لشارات الأعضاء وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات . وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعى أو الاتفاقى لأنه عبارة عن مجموع الألفاظ المخصوصة الموضوعة للمعانى المخصوصة وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الألفاظ لتوصل إلى الذهن بواسطه الأذن أو العين معانى مخصوصة متفقاً عليها .

وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعى عاما أى أن كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا ، وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

والصحيح أن اللغة هى مجموع العادات المخصوصة التى تجرى عليها كل أمة فى التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة ، وقد تقدم بيان معنى الكلام .

ولا يصح إطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع إلا إذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله لأن قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث أن الأذن أو العين ترسم فى ذهن السامع أو القارىء صورة المدلول كما هى ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة :

الشرط الأول — أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً .

الشرط الثانى — أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له .

الشرط الثالث — أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فإذا اشتق منها مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها .

وبناء على ماتقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاسم ثلاثة أيضاً :

الأول — أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا إلا إذا سهل استعمال اللفظ بقدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لأجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزية ، اللهم إلا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الأخرى لن تنالها أبداً .

الثانى — الملابسة وهى الخاصة الموجودة فى الألفاظ أو التراكيب أى الصيغ ، تلك الخاصة التى يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضه والملابسة تقتضى تحليل الفكر الإنسانى وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الأصلية إلا نادراً .

الثالث — الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الألفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً ينتفى معهما الإبهام ويرتفع الشك والالتباس . ومن اللغات ما تميل بأهلها إلى الإغراب فى التعبير

وهذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها ، وكلما كان القول طبيعياً أى بسيطاً ازداد وضوحاً ، فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على أنها طريقة العلم والواقع وهى التى يسهل بها التعبير عن الأفكار وحركات النفس كما ينبغى .

وكأنى بكم وقد استنتجتم مما ذكرت إلى الآن خطر مذهب التجوز أو الاشتراك فى اللغة وذكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفى من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الأمم الأخرى. سمعت كلاما كثيراً فى اللغات الأجنبية وأن لها أصلا أو أصولا ترجع إليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها فى حل مما يفعلون وأما نحن فلا أصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية .

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فإنى أنظر إلى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوربا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجدها لغات ممتازة تماما عن ذلك الأصل ، بل أجد الفرنساوى من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى أن كل لغة حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماما فإذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك الأصل فإنما هم يستعيرونه من لغة أعجمية بالنظر إلى لغتهم ألا ترون أنهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها إلى اليونانية

القديمه وأحياناً يستعيرون كلمتين : من كل لغة كلمة وينحتونهما ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزءاً منها ويفسحون له فى كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب حروفه الأبجدية .

إنهم يعملون أكثر من هـذا . إن لـكل بلد عادات فى أكلها وسكناها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون إلا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسميات أو تجعلها تشاهد فى أماكنها من النازحين إليها فيرى أهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لأهل البلد الآخر ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماماً لـكنهم لا يختارون ولا يقصدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفترقون شيعاً وأحزاباً بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرون فى حديثهم أن يلفظوه كأنهم فى نطقهم به أهله . والأمثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم يعملون ذلك حتى فى العلوم فترى الحكيم الفرنساوى وهو يقرر مذهبه عند ما يأتى على ما يخالفه من مذاهب الألمان إذا وصل إلى معنى خاص بأحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه وهكذا ، ثم يذكر بهامش كتابه معناه .

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والإشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا إلا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الأمم الغربية عادة لتكون الألفاظ الغريبة

عن لغتهم برهاناً على سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمته .

قالوا إن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا بعمل ما يعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى فى هذا الاعتراض إلا أنه دليل أحد أمرين فإما شعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا أو قصور فى معارفنا وإما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورَها محتاجة هى أيضاً إلى الإصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون . وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون .

نحن إما عرب أو مستعربون . وإما أجانب عن لغة العرب أو مولدون فإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا فليس من له أن ينازعنا فى استعمال ما كان مباحا لآبائنا من قبلنا وإن كنا أجانب أو مولدين فمن له أن يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان .

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها إلى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاءا فى بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها فأيسرت ودَرَجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على إدراك ماطلبوا من نور وعرفان .

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ونحن على مانعلم من الضعف والانزواء على أنهم فى عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لأنها عجمة بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم أولوا الرأى فيه وخوفا من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التى كانت تعاصرهم .

أيجوز لنا أن نتخلف عن السير فى طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة أنهم انقرضوا وبادوا فلا حق لنا فى متابعة الرقى ولايجوز أن نخطو بعدهم خطوة إلى الأمام لكن من الذى استأجرنا حراساً من الخرس على هذه الوديعة وبأى قوة أخضعنا على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقصٌ فى الأفهام أم قصر فى الأجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الإنسان ! .

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه وإن أصبح عديم الجدوى وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدرس والمطالعة وأن نكتفى من كل شىء بما ورثنا عن الآباء فنعيش كما عاش الأولون . غير أنى أرجوكم أن تتعلموا الصبر فلا تجزعوا إذا أصابتكم مصائب التقدم فتُركتم آخر القوم ولا تجزعوا إذا هصرتكم عوامل الرقى فمنيتم بمن يقف متفرجاً عليكم وأنتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك بحركة

هى عبارة عن اهتزاز الشىء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذى أصبح دارجاً على ألسنة المتفرجين .

خاف خصوم مذهبنا على اللغة العربية وحسبوها طعاماً سهل التناول والهضم فى معَد اللغات الأعجمية فاستجاروا من التعريب وصاحوا إننا لانطيق اسماً أعجمياً يدخل عليها .

أليست هى تلك اللغة الحافلة بالألفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهى لم تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها فى كل عام بل إن هـذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الأعاجم فى اعتبارها من اللغات الميتة .

قالوا ذلك يفسد علينا لغه القرآن ولا خوف على القرآن مادام فى الوجود مسلم ، ألا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين ؟ إليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك أمم تعد خلقاً كثيرا من المسلمين لايعرف الواحد منهم غير لغة أمته وهو مع ذلك يَحرِص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه، أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن بيمينكم وتفسحوا المجال فى لغتكم للتقـدم باليسـار لتنالوا السعادتين وتـكونوا من الناجحين فى الدارين ؟ .

قالوا العلمُ نافعٌ ، قالوا كثيرٌ منه مخالف للدين قالوا الحضارة تهددنا فلتنقها ، قالوا هى تخالف الدين. قالوا حدثت مستحدثات فسموها قالوا حرام عليكم ان كنتم فاعلين . من جراء هذا قال الفرنج عنا إنا قوم جامدون وماجمودنا الا من الدين فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل أنتم قوم ظالمون . مالنا وللدين نجرهُ فى كل أمر ونقيمه حاجزا فى وجه كل باحث حتى فى الأمور التى يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ماخلق الله وأن نسير على سنة التقدم التى سنها للبشر ونحن كل يوم فى إحجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب .

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ولاتقدم لكم إلا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون، لكن لاتكثروا من الانشقاق الخارج عن حد القياس المعقول ، ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهى لاتلبث أن تدخل على لغة الخاصة، أقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين .

حقيقة الشعر

« للأمير شكيب أرسلان »(١)

الشعر قول ثقيل وعبء عقلى باهظ لا يستقل به سوى الخناذيذ(٢) القرح(٣) ، والمفاوير السبق . ولا يجيده الا الناخعون(٤) الكمل أولو القوة الباهرة والمُنة(٥) الوثيقة والسليقة الفائقة والطبيعة الصافية التى لا تتاح إلا للآحاد ، ولا يؤتاها إلا الأفراد . يكاد قائله يتجرد من عالم المادة بقوة نفسه ، وشفوف حسه . ويلحق بالملأ النورانى فى مَضاء عزمه ، وورْى زَنده ، وسرعة فكره . ولو كانت الكهربائية شخصاً لكانت هى الشاعر .

---

(١) الأمير شكيب أرسلان : شاعر من عيون شعراء العصر ، وكاتب من أقدر كتابه على البيان الفصيح واللفظ الجزل ، ويمتاز فى الصناعتين بسرعة البديهة والذهاب مذهب الطريقة البدوية فى الأسلوب ، وهو أحد علماء الأدب الذين لا ينطقون إلا عن علم راسخ وأدب مكين ، ولو كان للأدب عنده من الحظ ما للسياسة لرفع من شأنه ما قصرت عنه أيدى سواه .

(٢) الخنذيذ : الشاعر المجيد .

(٣) القارح من ذى الحافر : الذى شق نابه وطلع .

(٤) يقال : نخع بالأمر ، إذا كان به خبيراً .

(٥) المنة : القوة .

وحسبك أنّ الأوّلين الذين لهم الأوّلية فى البيان كما فى الزمان كانوا يحسبون الشعر قوة من وراء الطبيعة وربما جعلوا له شياطين، وكان الشعر فى الجاهلية دولة ومُلكا وإذا أجاده واحد تهيبوه تهيّب الأمراء، وأجلوه إجلال الرؤساء. وإذا تذبذبوا فى الإيمان برسول بهرتهم آياته، وأفحمتهم معجزاته، أحالوا إعجازه على الشعر كأنه الدرجة الثانية التى يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحى. نعم إن الشعر قوة روحية يُفيضها الله على من يشاء من عباده فتُحلِّق بالشاعر، تحليق الأجنحة بالطائر، وتطوف به فى سبع سموات الخيال فيرى الطبيعة فى أفخم مشاهدها، وأشمخ شُرَفاتها، وأبهى مجاليها وأشجى أصواتها، وأذكى أعرافها. ويَنفث ماشاهده من هذه المرائى المجسمة فى قوالب من النطق فَتَقَ الله بها لسانه الهائل فجاءت شبيهة بموضوعها وتحدرَ بها تحدُّرَ السيل فى صبب وهتف المقامُ بالمقيم وطلب العلوُ بعضُه بعضاً، وتجاذب البدائع، وصدقت نسبة الروائع ففصل الكلامُ عما شئتَ من فكر سام ومقام شريف وما أردت من معنى بكر ولفظ فخل، لذلك قيل: إن الشعر هو لغة تامة.

وإذا تغلغل الشاعر فى أنحاء النفس وأحناء القلب وهام فى أودية الانفعال وأخذ يؤدى من هناك ما يُلقيه إليه مضاعفاً هوىً مُلحٌّ وشوق هاف وحب شاغف وتمنّ واصب وتوسل هالع ورغبة ورهبة وإيمان كإيمان العجائز ثم آب من أودية إحساساته وأعطاف فراساته بذلك

إلى سامعيه : أشجى وأصبى، وأرقص وأبكى ، وأحرق وروّى ، ونضر وأذوى ، وأيأس وأرجى ، وأفقر وأغنى ، وأسعد وأشقى ، وبلغ من كل مقام الغاية القصوى ، وجذب بأفنان سدرة المنتهى .

فالشعر إذن مظهر المرء فى أسمى خواطر فكره وأقصى عواطف لبه وأبعد مرامى إدراكه والشعر هو رؤية الإنسان الطبيعة بمرآة طبعه ، فهو شعور عام وحسٌّ مستغرق يأخذ المرء بكليته ويتناوله بجميع خصائصه حتى يروح نشوانَ خمرته أسير رايته ويريه الأشياء أضعافاً مضاعفة ويصورها بألوان ساطعة وحلى مؤثرة تفوق الحقائق وربما أزرت بها وصرفت النفس عن النظر إليها فهو أحياناً أحسن من الحسن وأجمل من الجمال وأشجع من الشجاعة وأعفُّ من العفاف، وان الظبىَ فى قصيدة غير الظبى فى فلاة بل غير الظبى فى مُلاءة وإنّ الأسد فى منظومة غير الأسد فى مَفازة وذلك حيث كان الشعر كلاماً يُلقى بلسان الإحساس ونطقاً ينزل عن وحى المخيلة وأوصافا يقضى بها الشوق وإنما كانت المبالغة زيادة على الحقيقة لتمكين السامع من الوصول الى مقدار الحق والحرص على أن لا ينقطع منه قسم على طريق الإلقاء وفى أثناء الانتقال فكأن هذه الزيادة جعلت لتملأ الفراغ الواقع بين المدرِك والمدرَك حتى لايصل الى الذهن إلا كاملا بكل قوته ولا يحل فى العقل الا بجميع حاشيته .

وللشعر سعة المذهب والتفنن فى شعوب القول بحسب ما تقتضيه المطالب فهو ملك الكلام يتصرف فيه كيف يشاء ، فيه تجسيم المجردّ

وتجريد المجسم وتشبيه المجردات بالمحسوسات وتلطيف المحسوسات الى درجة المجردات فتارة يجسّم المجرد حتى يكاد يُحس ويُمس وتقع عليه الأيدى وتنعكس أشعة نوره على العين وتهتز دقائقه فتهز بالهواء طبلة الأذن وطوراً يهفهف(١) به الملموس ويهلهل حتى يشفّ شفوفَ البلور ، ويسطع من ورائه النور ، فإذا شاء هلهل وإذا شاء أجزل وإذا شاء أذاب وإذا شاء أجمد وكأنه كيمياء الكلام يُركب من أجزائه ما يريد ليبرم الصورة التى يرسمها الخيال .

وعليه فمهما يكن من ذلاقة المنطق وقوة التأدية وعلو اللسان المترجمَ به ذلك الشعور السامى فأنى للكلام أن يحيط بهاتيك الانفعالات وأنى للشاعر أن يتغنى لسانه بكل ما يتغنّى به جنانه وأين الثريا من يد المتناول فإن اللغة رموز محدودة وإشارات مخصوصة وهى تطمع أن تعبر عما فى النفس البشرية والنفس البشرية عالم بنفسه لا تدرك له البصيرة أفقاً وبحر لاتعرف له قراراً ولذلك كان أشعر الناس أمكنهم من هاتيك الخيالات وتلك العواطف أن يزفها فى أبهج حلاها وأسطع ألوانها، هذا هو أتم الناس لغة .

فكيف لا يكون بعد ذلك الشعراء أمراء الكلام وملوك الألسنة ولا يكون لهم التصرف باللغات واليد العليا فى النزع والإثبات والشعر

---

(١) هفهفه : جعله مهفهفاً ، وهو الضامر أو الرقيق .

يبقى بقاء الشمس ويسير مسير الأرض ، وقد رواه الخلف عن السلف وتدارسه الناس منذ أيام العرب البائدة وحفظوا شعر جديس وعاد ، وقد محيت رسوم إرم ذات العماد . وكان من آل امرىء القيس ثلاثون ملكا بادوا وباد ذكرهم وبقى ذكره وحده بما أمسكه من شعره ومكنهُ من قوله السائر فى الأعقاب ، المتسلسل فى الأيام تسلسل النطف فى الأصلاب ، وأى رجل من اليونان بقى ذكره بقاء ذكر هوميروس مع كون بعضهم شك فى مجرد وجوده ، بل أى صغير من صغار العرب لا يسمع بذكر المتنبى ولا يُحل اسمه فى أوائل الأسماء التى تطرق ذاكرته ويتعلمها منذ طفوليته وقد لاتعرض له أسماء أشهر الملوك إلى زمن كهولته .

نعم إن الشعراء هم سدنة هياكل البيان وبهم تحفظ اللغة ومنهم يعرف تاريخ العقل البشرى وعليهم معوّل القلوب إذا أصدأتها الكروب ، وإن أبقى آثار الآدميين هو القول وأبقى أصناف القول هو الشعر لأن النثر كما يقال يتناثر تناثر الشرر . والنظم يرسخ رسوخ النقش فى الحجر . بل قد تمحى النقوش من صفحات الحجر ولا تمحى من رؤوس البشر .

مقـــابلة

بين الشعر العربى والشعر الإفرنجى

« للشيخ نجيب الحداد »(١)

الشعر هو الفن الذى ينقل الفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال ، والكلام الذى يصور أرق شعائر القلوب على أبدع مثال ، والحقيقة التى تلبس أحياناً أثواب المجاز ، والمعنى الكبير الذى تبرزه الأفكار فى أحسن قوالب الإيجاز ، وأخفى وجدانات النفس تتمثل للمرء فيحسبها سهلة وهى منتهى الإبداع والإعجاز . بل هو الأنة التى تخرج من قلب الثكلان ، والنغمة التى يترنح لترديدها الطروب النشوان ، والشكوى التى تخفف لوعة الشاكى ويأنس بها المحب الولهان . بل هو الحكمة يجدها الحكيم فيبرزها بما يليق بها من محاسن اللفظ ، ويوازن بين أجزائها

---

(١) الشيخ نجيب الحداد : كاتب من أحسن كتاب هذا العصر ، وشاعر من أرق شعرائه ، ومترجم من أقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة السائغة ، ولقد مر على وفاته بضع سنين ولم أر بين السوريين ولا المصريين من سلك مسلكه فى ترجمة الروايات الإفرنجية ، ولو لم يكن له من الآثار إلا رواية « غصن البان » ورواية « الفرسان الثلاثة » لكفاه .

موازنة تحبّب ورودها على الأذن وتقرب منالها من الحفظ ، والجمال تراه العين فتحب أن تحفظ ذكراه فتبقيه صورة ماثلة يراه بها من لم يكن قد رآه ، ومن نظر فى تاريخ الشعوب وسيرة الأمم لم يجد شعباً ولا أمة بلغت غاية من المدنية أو تأخرت درجات فى الهمجية ، إلا كان للشعر منها نصيب وللنظم بين أفرادها سجية . يدل ذلك على أن الإنسان شاعر كما هو ناطق بالطبع وأن الطبيعة تقتضى التوازن والانتظام فى عناصرها وسائر كائناتها وأحوالها ، وما أحسب الشحرور يغنى والقمرى ينوح إلا ولهما من انتظام تغاريدهما طرَب ومن وزن ألحانهما سرور هو مسرة الشعر فى النفس وطيب أوزانه على الأذن وخفة تقطيعه على الحواس ، وما الغناء لولا توازن نَبراته وتشابه إيقاعه إلا صوت عمل لا معنى له ولا تأثير فيه .

ولقد أولعت بهذا الفن منذ الصبا وصرفت له من أوقات الفراغ برهة طويلة قرأت فيها دواوين العرب ونظم المجيدين من شعرائهم ثم قرأت كثيراً من شعر الفرنسيس وشعر غيرهم منقولا إلى لغتهم كشعر اليونان والرومان والإنكليز والألمان والطليان وكلهم من شعراء الدنيا المعدودين الذين لم تُترجم أقوالهم إلى اللغة الفرنسوية إلا لشهرتها وإبداع ناظميها مثل هوميروس وفرجيل وناس ودانتى وشكسبير وشيلر وأمثالهم من أئمة الشعر الإفرنجى الذين تضرَب بهم الأمثال ويستشهد بأقوالهم فى كل مقال . وقد سألنى من لا تسعنى مخالفته أن

أستعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربى والإفرنجى على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب فى معانى الشعر وأنواع إيراده وأذواق ناظميه وطرائق البيان فى مآخذه وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند كل من الفريقين هو ولا شك مطلب عسير ونية(١) بعيدة تقف دون غايتها سوابق الأقلام . وتحسُر دون إدراكها بصائر الأفهام . إذ ينبغى للكاتب أن يعلم لغة كل شاعر من هؤلاء الشعراء ويعرف منزلته الشعرية فى أهل لسانه ويكون قادراً على الحكم فى شعرهم وبيان الفرق بينه وبين الشعر عندنا مما يستلزم علماً كبيراً وخبرة واسعة بجميع هذه اللغات .

ولكننى لست فى شىء من ذلك ولا أنا فى هذا البحث من حيث الفصاحة اللفظية والتراكيب اللغوية بل أنا أتعرض للكلام فيه من حيث المعانى الشعرية التى وقفتُ عليها منقولة إلى اللغة الفرنسية عن جميع هذه اللغة وأقابل بينها وبين الشعر العربى من هذا الجانب المعنوى فقط أى من حيث إبرازُ المعانى العقلية التى تدلّ على مقدرة الشاعر ومنزلته من النبْل والحكمة مع بيان شىء من قواعد الشعر فى لغة الفرنسيس التى عنها أنقل كلما رأيته من شعر الجميع ممثّلا فيها بتمام

---

(١) النية : الوجه الذى ينويه المسافر .

معانيه ، وما أنكر أن نقل الشعر إلى النثر وتصوير المعانى الشعرية فى قوالب نثرية ولا سيما إذا كانت تلك القوالب من غير اللغة التى وضعت فيها مما يحط قدر النظم وينزل به عن رتبة البلاغة التى كان يمتاز بها فى لسانه الأصيل ولكن الشعر الإفرنجى قد يكون واحداً تقريباً من هذا القبيل إذ أكثر اصطلاحاتهم الكلامية وضروب تعابيرهم اللفظية قلما تتفاوت فى درجات البيان ووجوه الإيضاح والتعبير لأنها كلها ترجع إلى أصل واحد وهو اللغة اللاتينية التى هى أم لغاتهم جميعاً وعنها يشتق أكثر ألفاظهم ومسمياتهم وطرق الإنشاء عندهم بحيث أنك لو نقلت كتاباً من الطليانية مثلا إلى الفرنساوية لم تكد تحتاج فى نقله إلى الزيادة على ترجمة الألفاظ بأعيانها ومواضعها دون تغيير يذكر فى أسلوب العبارة أو تنسيق مفرداتها على الوجه النحوى إذ النحو فى كلتا اللغتين متقارب لا يكاد يتباين إلا فى النادر وضروب البلاغة الإنشائية متشابهة لايكاد يختلف فيها الذوق عن الذوق إلا اختلافا يسيراً فى مواضع لا تذكر ، وبخلاف ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية فإن النقل عنها مثل النقل إليها يستلزم تبديل العبارة كلها بجميع وضعها تقريبا وتقديم كثير من ألفاظها أو تأخيره وربما أدّى الأمر بالناقل إلى تغيير الأصل بجملته إلى معنى يقاربه لعدم اتفاق المعانى بين اللغتين وتباين أذواق أهلهما فى وجوه التعبير وأساليب المجاز وطرق الاستعارة مما يرجع إلى مألوف كل من الفريقين فى حال الحضارة وهيئة الاجتماع ولذلك كان أكثر الأشعار

الإفرنجية المنقولة الى اللغة الفرنساوية لا يفقد من جمال معانيه الشعرية شيئاً سوى ما كان عليه من طلاوة النظم ورونق القالب الشعرى وكأن من وقف على تلك الأشعار منقولة الى هذه اللغة كأنه وقف عليها فى لغتها من حيث دقة المعانى وابتكارها ودرجة ناظمها فى مقام الشاعرية وذلك لما قدّمناه من اتفاق أكثر هذه اللغات فى أصولها وقرب المشابهة بينها فى بيان العواطف والوجدانات ولا سيما وأن أصحابها فى نظمهم إنما يعولون على دقة المعانى وحقائق الأفكار أكثر مما يعتمدون على رشاقة اللفظ وزُخرف الأساليب إذ لغاتهم أضيق من لغتنا كثيراً وقلما تختلف أنواع التعبير عندهم بالنسبة الى اختلافها واستفاضتها عندنا بحيث أنهم لا يجدون لإبراز المعنى صيغة أو صيغتين إلا وجدنا له نحن عشر صيغ أو أكثر نتفنن بها فى إبرازه، وتختلف درجة الشاعرية عندنا باختلاف الإجادة والتقصير فيها وهى المزية التى امتازت بها لغتنا العربية عن غيرها من سائر اللغات ..

ولا بأس قبل الدخول فى هذه المقابلة التفصيلية بين أشعارنا وأشعارهم أن أورد للمطالع نبذة إجمالية عن أصل الشعر عندنا وعندهم ودرجات ارتقائه فى سلم الكمال من حيث نشأته إلى هذا العهد وما تقلب عليه من أحوال المعانى وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب إذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم فى مراقى تقدمها وحضارتها إلى الآن، وأبدأ من ذلك بما يقوله الإفرنج عن أصل الشعر عندهم وكيفية تدرجه ووصوله إليهم على سلسلة أول حلقاتها بدء

الشعر فى العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ما صار إليه على عهد شعرائهم فى هذا العصر نقلا عن فكتور هيجو أكبر شعراء الفرنسيس وأشهرهم فى هذا الفن قال :

إن الهيئة الاجتماعية التى تعمر الأرض اليوم لم تكن هى نفسها التى كانت تعمرُها من قبل بل إن المجتمع الإنسانى قد نشأ ودَرج وشبّ كما ينشأ الواحد من أفراده فكان صبيا ثم صار رجلا ثم نحن الآن نشهد شيخوخته الكبرى . ولقد كان قبل الأوان الذى يسميه المعاصرون عهد الخرافات أوان أقدم منه يسميه السلف العهد العتيق وأولى به أن يسمى عهد الأولين وبه تحصل عندنا ثلاثة عهود للمجتمع البشرى ، من يوم نشأته إلى هذا العصر ، ولما كان كل مجتمع له شعر بخصوصه يمتاز به عن سواه فقد رأينا أن نبين هنا ما كان من المزية الشعرية لكل عهد من هـــذه العهود الثلاثة التى هى أطوار الحياة الاجتماعية من بدء نشوئها وهى عهد الأولين وعهد الخرافات والعهد الحاضر وهو يشمل ما كان من الأعصر الوسطى إلى الآن .

فقد خُلق الإنسان جديداً فى العهد الأول وخلق الشعر معه بالطبع إذ هو مفطور عليه فكانت أشعاره الأناشيد والأغانى الروحية طبقا لما كان يرى حوله من عجائب الله وآياته ، ثم هو قد كان قريب العهد بصنع الله له فكان شعره الصلاة والابتهال وكان لعود النظم عنده ثلاثة أوتار لا يرن على سواها وهى الخالق والخليقة والنفس ، ثم إن

الأرض كانت قفراً خاليا ينقسم سكانها إلى أسر لا إلى قبائل ويسمى حكامها آباء لا ملوكاً وكان العيش فيها على دَعة وسعة ليس فيه اجتياز أرضٍ مخصوصة ولا شريعة ولا نزاع بل هو عيشه رُعاةٍ رُحّل هى مهد كل حضارة ومدنية ولكنها لم تكن فى شىء منهما على الإطلاق وكان فكر المرء فيها كحياته أشبه بسحابه سارية تتغير أشكالها وتختلف مجاريها باختلاف ما يهب عليها من الرياح وهذا هو الإنسان الأول بل الشاعر الأول ويدعى عهده عهد الخليقة أو عهد الأولين .

ثم تدرج العالم فى مراقى فطرته الكمالية فاتسع نطاق العمران وامتدت حدود الاجتماع فصارت الأسرة قبيلة ، والقبيلة أمة وشعبا والتف كل هذا المجموع على قطب واحد جعله مركز عمرانه فنشأت من ذلك الإمارات والدول وقام المجتمع المدنى مقام القبائل الراحلة واختط المصر الواسع مكان الحلة الصغيرة وشيد القصر الرفيع مكان الخيمة المضروبة وبنى الهيكل العظيم فى موضع خيمة الاجتماع وبقى أولئك الرؤوس رعاة ولكنهم صاروا رعاة شعوب بدل القطعان واستبدلوا عصا الراعى بالصولجان . ثم ضاقت الأرض بسكانها وشعوبها فصدم بعضهم بعضا فكانت من ذلك الحروب والغارات وكان الشعر مرآة لكل تلك الأمور تنعكس عنه وتلوح صورها فيه فانتقل بها من حد بيان الأفكار إلى حد وصف الحوادث وتصويرها فانتظم فى سلكه تاريخ العصور والشعوب والدول وتدوين المواقع والحروب

والحكايات وخرج من ذلك هوميروس الشاعر اليونانى المشهور وفى قصائده وحدها صوَر تلك الأعصر كلها وبيان وقائعها وحوادثها ووصف مشاهيرها وأبطالها وآلهتها طبقا لما كان عليه الشعر فى ذلك الحين من الجمع بين الدين والدنيا وحقيقة التاريخ وأوهام الخرافات.

ثم دخل العالم بعد ذلك فى حال جديدة هى النصرانية التى درجت من مهد الشرق فكان الغرب مجتمع أنوارها وهدمت مبانى تلك الخرافات القديمة ووضعت أساس المدنية الصحيحة على آثارها وأعلمت الإنسان أن له حياتين حياةً فانية وحياةً خالدة وأنه مثل حياته مؤلف من عنصرين حيوان ونطق ونفس وجسد وفصلت بين النسَم والأجسام فصلا بعيداً ووضعت بين الخالق والمخلوق فرقاً شاسعاً فارتقى بها عقل الإنسان من حال إلى حال وتحولت أخلاقه التى هى تلو عقائده من صيغة إلى صيغة أخرى وانتقل الشعر عنده من دائرة الوهم إلى حد الحقيقة ومن الخيال الخرافى الكاذب إلى المعنى الحسى الصحيح حتى بلغ ماهو عليه فى هذا العصر ، اه .

أما الشعر العربى فلم يكن فى شىء من تاريخ الشعر الإفرنجى فى تباعد أطواره وشدّة التباين فى تنقله من حال إلى حال على مابينه الكاتب الفرنسوى فيما نقلناه من كلامه وإنما هو شعر منفرد فى نفسه نشأ فى بلاد العرب بخصوصها وأجراه الله على ألسنة العرب وحدهم دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلا كما أخذ الإفرنج شعرهم عن اليونان

والرومان ومن قبلهما ولم يأخذ أحد عنهم كما أخذ عن غيرهم بل بقى منحصراً فيهم تناولوه إرثاً عن الطبيعة فى بداوتهم ولم يورثوه أحداً من غير قبائلهم والناطقين بلسانهم وجل ما كان من تقلب أطواره عندهم أنه لما انتقل إلى الحضر أو لما انتقلت بداوة العرب إلى الحضارة المدنية لم يطرأ عليه سوى تغيير بزته بتنقيح بعض ألفاظه وتخير السهل المأنوس منها وإطراح الكلم الوحشى الذى تأباه رقة الحضارة وآداب اجتماعها وأما ما سوى ذلك من نسق نظمه وديباجة معانيه وطرائق إنشائه وبيان المقاصد منه فانه لم يكد يتغير فى شىء منها إلا ما دعت إليه حالات الحضارة فى بعض مصطلحاتها ومُستحدَث عاداتها بل هم لا يزالون على المجرى العربى القديم فى وصف الديار والبكاء على الأطلال والتشبيب بالمحبوب وتقديم الغزل والنسيب بين أيدى ما يقصدونه من الأغراض ونظم الحكم والأمثال فى أثناء ما يَعرض لهم من صنوف الكلام وربما خرجوا عن ذلك إلى ما أحدثته عندهم الحالة من وصف الرياض والقصور ومجالس الشراب وأمثالها مما لم يكن معروفاً فى الجاهلية أو كان مخصوصاً بالمترفين منهم ممن اتفقت لهم مثل تلك الحالات وبالجملة فهم قوم جرى الشعر على ألسنتهم كاملا فيما نرويه عنهم إلا إذا كان قبل ذلك شىء لم يبلغنا مما لم ينقله لنا التاريخ ولعل أول ما نطقوا به منذ هذا النوع المعروف بالرجز وهو منزلة بين الشعر والنثر يلتزمون فى كل بيت منه قافيتين فقط على نحو ما نراه فى الشعر الإفرنجى ليومنا هذا ثم تطرقوا منه إلى سائر الأوزان يلتزمون فيها القافية الواحدة

فى جميع أبياتها . وكان شعرهم فى أول أمره مقصوراً على حوادث أنفسهم والإبانة عما يُكنهُ الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية واقعة غرامية أو حماسية يبرزون المعانى الشعرية فى ذلك كله كما تصور لهم نفوسهم مجردة عن الاختلاق ودعوى غير الحقيقة وحكاية حوادث وهمية مما درج عليه المولدون بعد ذلك ، وإذا خرجوا إلى المدح لم يمدحوا الرجل إلا بما فيه ولم يذكروا من حسناته إلا ماصدر عنه فعلا كما أنهم اذا رثوا مفقوداً لم يرثوه الا بما تتفجع به قلوبهم من الحزن عليه وبيان أخلاقه وصفاته كما نرى ذلك فى قصائدهم الجاهلية والمخضرمة كقصائد زهير فى هَرِم بن سنان وقصيدة كعب فى مدح الرسول واستعطافه ، وأمثال ذلك فإنك لاتجد هناك اختلافا فى المدح ولا تطرفاً فى الإطراء ولا إفراطاً فى الثناء إلا ما جرى على طريق الاعتدال ولم يخرج عن حد المقبول السائغ فى الإفهام على غير ماصار فيه المدح بعد ذلك من الغلو الزائد وكثرة التشعب فى إبراز المعانى الخيالية والصور الوهمية والخروج تارة إلى المحال حيث يجعل المادح ممدوحه حاكماً على الدهر ويضع فى يديه أزمة الأقدار ويقرب عليه تناول النجوم لو أرادها ويوصل حد حكمه إلى الشمس والبدر توسعاً فى المعانى وتفنناً فى إيرادها وتصويرها كأنهم لما انتقلوا من حالة البداوة الجاهلية التى هى البساطة والفطرة إلى حالة الحضارة التى هى سلم الارتقاء ومَدرجةُ التأنق فى سعة العيش وترف النعمة ورأوا غير ما كانوا يألفونه من أبهة المُلك وزينة الحضارة انتقلت معانيهم الشعرية أيضاً على هذا النسق تدرجا معهم فى مراقى المدنية وجعل

الشاعر يزخرف معانى شعره كما يزخرف منزله ويتفنن فى إبراز مقاصده كما يتفنن فى طعامه ولباسه ويرتقى بها فى سلم الخيال الذى هو تلو الحقيقة كما ارتقى فى سلم الحضارة التى هى رديف البداوة والفطرة إلى أن بلغ الشعر عندنا مبلغه المعروف لهذا العهد لم يتحول عن حقيقة أصله ونسق نظمه إلا هذا التحول النسبى .

أما الفرق الفاصل بين الشعر عندنا وعندهم فعلى نوعين : لفظى ومعنوى ، أما اللفظى فهو ما تعلق بالوزن والقافية فإن وزن الشعر عندهم يتألف من الأهجية اللفظية وهى كل نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف المد سواء كان ذلك الحرف وحده أو مقترناً بحرف صحيح ويسمون هذه الأهجية فى اصطلاحهم الشعرى « أقداماً » وبها تنقسم أبحر الشعر عندهم على حسب أعدادها فى البيت فيكون أطولها ما تركب من اثنى عشر هجاء وهو مايسمونه الوزن الإسكندرى نسبة إلى الإسكندر وأقصرها من هجاء واحد فقط بحيث يسوغ للشاعر عندهم أن ينظم القطعة يوزن أول أبياتها اثنى عشر هجاء ثم أن ينزل فيها بالتدريج إلى أن يختمها بهجاء واحد على مايشبه بعض التواشيح الغنائية عندنا تقريباً ، ولكن أكثر الأوزان شيوعا بينهم هو الوزن الإسكندرى ومنه أكثر قصائدهم ورواياتهم ولكن يُشترط فى البيت الذى يكون من هذا الوزن أن ينتهى كل شطر منه عند الهجاء السادس بحيث لا تنقطع الكلمة فى وسطه إلى سطرين بخلاف الشعر العربى الذى يجوز وصل الشطرين منه بكلمة واحدة وهو المعروف عندنا بالمدوّر . ولكنهم

يخالفون العرب فى هـذا القيد بأنهم يصلون بين البيت الأول والثانى فى المعنى واللفظ جميعاً بأن يجعلوا الفاعل قافية للبيت ويضعوا مفعوله فى أول البيت التالى ، بحيث يضطر القارىء له ألا يقف عند القافية بل يصلها بما بعدها فى الإلقاء ، وهو المذهب الذى أنشأه ڤيكتور هيجو أخيراً وعليه أكثر شعرائهم اليوم ؛ وبخلاف ذلك العرب فإن هذا يُعد عندهم من العيوب ولا يتسامحون بوقوع شىء منه فى أشعارهم ولو وقع فى كلام أفحل شعرائهم كالنابغة الذبيانى حيث يقول :

وهُم وردوا الجفارَ على تميمٍ وهم أصحابُ يومَ عكاظِ ، إنى
شهدتُ لهم مواقفَ صادقاتٍ شهدتُ لهم بصدقِ الودِ منى

لا يخفى أن إقامة الوزن فى الشعر الإفرنجى على عدد الأهجية مما يسهل نظمُه كثيراً ويبيح للشاعر أن يقدم ويؤخر فى ألفاظ البيت ماشاء ويضع فى أثنائه اللفظة التى يريدها ولا يختل معه الوزن عكس الشعر العربى الذى يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره قد يؤدى إلى اختلال الوزن بجملته أو ينقل البيت من بحرٍ إلى بحرٍ آخر كما هو معروف عند أرباب هذا الفن . ومما نخالف الإفرنج فيه مخالفة لفظية مسألة القافية فإنها عندهم لا تلزم الشاعر فى أكثر من بيتين ولذلك كان شعرهم أشبه بالأراجيز عندنا على ماقدمناه قريباً ولكن لهم فيها قيداً آخر لاوجود

له عندنا وهو أنهم يقسمون القوافى إلى مؤنثة ومذكرة ويقتضون أن تكون كل قوافى القصيدة مؤنثة فمذكرة على التوالى بحيث لا يتوالى على قافية مذكرة أو مؤنثة ، ويريدون بالقافية المؤنثة ما كانت مختومة بحرف صحيح فهم أبداً يعاقبون بين هذه القوافى إلى ختام القصيدة .

وإنما جعلوا أبيات شعرهم على قواف متعددة لأن لغتهم ضيقة قليلة الألفاظ لا تتسع لالتزام قافية واحدة فى القصيدة الطويلة على خلاف الشعر العربى الذى له من اتساع لغته واستفاضة ألفاظها أكبر نصير وأوفى مدد على تعدد قوافيه والتزام الحرف الواحد فيها ومن الغريب أنهم مع توسعهم فى القافية بكثرة تغييرها وعدم التزامها وجواز تكرارها نجدهم أكثر الناس شكوى من صعوبتها وقلة الظفر بالمحكم المتين منها ، حتى أن فولتير نفسه وهو من أكبر شعرائهم كان يتظلم منها ويسميها النير الثقيل والظالم الشديد وأن شاعرهم بوالو لما امتدح موليير الشاعر الروائى الشهير قال « علمنى يامولييز أين تجد القافية » ولا ننكر أن شعراء العرب يفتخرون بالقافية فى شعرهم ويتباهون بالوقوع على المحكم منها ويمدحون شاعرهم بأن القوافى تنقاد له وأنه يضعها فى أماكنها ، ولكن شتان بين من يفخر بالقافية وهو يلتزمها فى كل أبيات قصيدته وبين من يفخر بها ويعدها نيراً ثقيلا وهو لا يلتزمها إلا فى كل بيتين من أبياته .

ثم إن عندهم خلا ذلك نوعا من الشعر يسمونه «الشعر الأبيض» وهو الذى لا يلتزمون فيه قافية بل يرسلونه إرسالا ولا يتقيدون فيه بغير الوزن ، وأكثر شيوع هذا النوع عند الإنكليز وعليه أغلب منظومات شاعرهم شكسبير أخذاً عن الشعر القديم. ومن اصطلاحهم فى النظم أنهم يخالفون بين أبيات القصيدة فى قوافيها بأن يفرقوا بين كل بيتين من قافية واحدة ببيتين آخرين من قافية أخرى على ما يشبه نسق الموشحات الأندلسية عندنا إلا أنهم توسعوا فى المقارنة بين الأوزان توسعاً زائداً حتى صاروا ينظمون المقطوع الواحد من الشعر على عدة أوزان مختلفة لا ينطبق مجموعها على الذوق السماعى إذ بينما الأذن تسمع وزناً فى بيت إذ بها قد انتقلت فجأة إلى وزن آخر ومنه إلى غيره دون أن تستقر على وزن معلوم وهو مما لا يوجد عندنا إلا فى بعض الموشحات المذكورة التى لم يعد أحد ينسج على منوالها فى هذه الأيام .

هذا مجمل ما نباين الإفرنج فيه من حيث اصطلاح الشعر اللفظى ومقتضيات قواعده وأوضاعه ، وأما الجهة المعنوية فأوّل ما يخالفوننا فيه أنهم يلتزمون الحقائق فى نظمهم التزاماً شديداً ويبعدون عن المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً ، فلا تكاد تجد لهم غلوّاً ولا إغراقا ولا تشبيهاً بعيداً ولا استعارة خفية ولا خروجا عن حد الجائز المقبول من المعانى الشعرية فى جميع وجوهها ومقاصدها فهم من هذا القبيل أشبه بالعرب فى جاهليتهم إذا مدحوا لم يبالغوا إذا وصفوا لم يُغربوا وإذا شبهوا

لم يُبعدوا فى التشبيه واذا رثوا لم يتعدوا صفات المرثىَ وأخلاقه فى المعانى السهلة المقبولة على خلاف ماصار إليه شعر العرب بعد الإسلام من الإغراق والغلو والمغالاة فى الوصف إلى ما يفوت حد التصور والإدراك مما أشرنا اليه فى فاتحة هذا المقال. غير أننا اذا خالفناهم فى أكثر هذا الأمر فنحن معهم على اتفاق فى بعض أطرافه أى أنه يجوز عندنا كل ما يجوز عندهم من هذا النحو ولا يجوز لديهم كل مايجوز لدينا منه بحيث كنا جامعين شعرهم من هذا القبيل وزائدين عليه ما انفردنا به دونهم من ذلك الإغراق ، وكنا نقدر أن نقول « أعذب الشعر أكذبه وأحسنه أصدقه » وهم لا يقدرون أن يقولوا إلا أن أحسن الشعر أصدقه فقط . ومن وقف على مافى ديوان الحماسة من شعر العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ووقف على شعر الإفرنج اليوم رأى أن لافرق بين الشعرين فى بساطة المعانى وصدق التشبيه وحقائق الوصف ، وعجيب كيف يكون كمال الشعر عند الإفرنج فى عزة مدنيتهم وتمام حضارتهم مشابهاً لبدء نشأته عند العرب فى إبان جاهليتهم وخشونة بداوتهم على أننا إذا شابهنا الإفرنج فى شعر جاهليتنا من حيث البساطة والتزام الحقائق وباينا هم كثيراً فى شعرنا الأخير من عهد المتنبى إلى اليوم من حيث الإغراب فى المعانى والمغالاة فى الوصف بما يخرج الكلام عن حد الحقيقة أحياناً أو يلبس الحقيقة الصغيرة منه الثوب الطويل الصافى من المجاز والإيهام حتى يكاد ينكرها الخاطر وتبدو له على غير وجهها المعروف إلا أن ذلك لايرد فى شعرنا إلا

من بعض الوجوه المعدودة كالغزل والمديح وأشباههما مما يوافق الخيال ويجرى مع وهم النفس ويقصد به تصوير الوجدان الخفى أكثر مما يقصد به تقرير الحقيقة الراهنة ولذلك تفنن فيه شعراء العرب وتسابقوا إلى الصور الخيالية منه يصورونها فى كل قالب ويأتون بها من كل سبيل وقد آنسوا ميدان الخيال فسيحا فجالوا ووجدوا مجال القول ذا سعة فقالوا وساعدتهم أساليب اللغة واتساع تراكيبها وبلاغة تعبيرها وجزالة ألفاظها ووفرة الاستعارات والكنايات فيها فأرسلوا أفراس قرائحهم مطلقة العنان وأجالوا بصائرهم فى سماء المعانى فاستنزلوا النجم من العنان. وأما ماسوى ذلك من تقرير الوقائع وإيراد الحكم وضرب الأمثال وتصوير الحقائق ووصف المشاهد فإنهم لا يكادون يخرجون عن حد الطبيعة ولا يحيدون عن محجة الصدق والقصد ولا يأتون إلا بما تلقيه البداهة ويمليه الجنان على اللسان فهم من هذا القبيل يشبهون الإفرنج وان لم يشبهم الإفرنج من هذا القبيل. ثم إن اصطلاح الإفرنج أن لا يقدموا شيئاً بين أيدى أغراضهم الشعرية بل يأتون بها اقتضاباً من غير تمهيد ولا تقدمة على خلاف مايفعله أكثر شعراء العرب من تقديم الغزل والنسيب والحكم وأمثالها أمام ما يقصدون من المدح أو الرثاء إلى أن يخلصوا منها إليه، إلا أن ذلك ليس بالأمر اللازم عندنا وكثيرا ما يأتى الشاعر بغرضه فى مفتتح قصيدته دون توطئة ولا تمهيد. ومما يخالفوننا فيه أنهم يتجافون عن الفخر فى قصائدهم ولا يستعملون التمدح فى كلامهم بل يعدونه عيباً ونقصاً

بخلاف العرب الذين صبروا على هذا الأمر دهراً طويلا وجعلوا له فى أشعارهم بابا خاصاً ، على أنه من كونه مباحا عند العرب فهو اليوم من المذاهب المرغوب عنها فى طبيعة العصر من إبائه إلا إذا دعت إليه ضرورة تدفع الشاعر إلى مثله فى مقام النضال والمدافعة عن الأحساب .

ومما فاق الإفرنج فيه فى مقام الشعر وانفردوا به دوننا نظم الروايات التمثيلية واعتدادها من أول أبواب الشعر وأسمى درجاته وأشدها دلالة على براعة الشاعر وحسن اختراعه وهم مصيبون فى هذا الاعتقاد كل الإصابة لأن فى نظم الروايات الشعرية من الدلالة على الفضل والإبداع أكثر مما فى نظم الديوان من القصائد والمقطعات إذ هى تقتضى حسن الاختراع فى تأليف حكايتها وبراعة النظم فى وضع أبياتها ولطف التصور فى بيان شعائر تمثيلها واختلاف حالاتهم ودقة تبويب فصولها وتوثيق عقدتها ووصل بعضها ببعض مما يستلزم رويَّة طويلة وعارضة شديدة وقدرة فائقة فى التصور والنظم والتأليف على غير ما تقتضيه القصائد والمقاطع المستقلة التى يقصد بها الناظم غرضاً واحداً فيأتى به فى أبيات معدودة لا يضطر فيها إلى عقد حكاية ولا إلى تمثيل عواطف متعددة ولا إلى إقامة نفسه فى موقف كل شخص من أشخاص الرواية يتكلم بلسانه وينطق عن شعوره ويضع فى دوره التمثيلى ما كان ينبغى أن يقوله صاحب الدور الأصيل . وقد انتقل هذا الفن إلينا فى هذه الأيام

واشتغل به جماعة منا نظموا فيه الروايات الشعرية وأخصهم المرحوم المأسوف عليه الشيخ خليل اليازجي فى روايته المروءة والوفاء إلا أننا لم نبلغ فيه مبلغ الإفرنج بعد ولا وصلنا إلى ماوصلوا اليه من درجة كماله واتقانه .

ومن الفرق بيننا وبينهم فى نظم الشعر أننا نفوقهم فى وصف الشيء وهم يفوقوننا فى وصف الحالة أى أننا إذا وصفنا الأسد أو الفرس أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء أتينا فى ذلك بأحسن مما يأنون به وتوسعنا فيه توسعاً لا يقدرون هم على الإتيان بمثله . وانهم اذا وصفوا حالة من قتال رجلين أو معركة جيشين أو مقابلة محبين أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاءوا فى ذلك بأحسن مما نجيء به وتوسعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم بمثله . ومثيل ذلك أن المتنبي وصف الأسد بما لا يقدر إفرنجى على وصفه بمثله ، وهيجو وصف معركة واترلو بما لا يقدر شاعر عربى على الإتيان بنظيره فهم بذلك أقدر على تصوير الوقائع ونحن أقدر على تصوير الأعيان لأننا اذا وصفنا الشيء بلغنا من بيان صفاته إلى أدقها وأخفاها وتوصلنا من إدراك معانيه إلى أصغرها وأدناها ، حتى لا نُبقى منه باقية ولا تفوتنا منه حقيقة وصف ، وهم اذا وصفوا حالة أوموقفا توصلوا الى أخفى دخائله وأبانوا عن أدق خفاياه وبسطوا لعين الفكر مالاتكاد تبصره عن الحس من غوامضه وسرائره وذلك لأنهم يتبعون وجدانات النفس الى أقصاها فلا يفوتون منها جليلا ولا دقيقا ، وهى المزية التى

يعتبرون الشاعر بها ونحن نشير الى تلك الشعائر إشارة إجمال ونترك الى القارىء تمام التصور والتفصيل .

هذا ، ولو تتبعنا بيان كل فرق بيننا وبين الإفرنج من مثل البديع اللفظى والمعنوى مما لا وجود له عندهم والتفنن فى إيراد المعانى على أساليب كثيرة مما انفردنا به دونهم وأوردنا على كل ذلك شاهداً من كلامنا وكلامهم لضاق بنا المجال وخرج بنا نطاق البحث إلى دائرة أوسع من دائرة الموضوع تستغرق كتابا بأسره ولكن الذى يؤخذ من جملة ما أوردناه أنهم قوم امتازوا عنا بشىء وامتزنا عنهم بأشياء وأننا قد جمعنا من شعرهم أحسنه ولم يجمعوا من شعرنا كذلك وهى ولا شك مزية اللغة العربية التى اختصت بما لم تختص به لغة سواها من غزارة مواد اللفظ ووفرة ضروب التعبير واتساع مذاهب البيان حتى لقد سماها الإفرنج أنفسهم « أتم لغة فى العالم » وكفى بذلك بيانا لفضلها على سائر اللغات ودليل على فضل شعرها على سائر الشعر والله أعلم .

نقد ديوان شوقى

« لمحمد بك المويلحى »[١]

— ١ —

الانتقاد قائد الاجتهاد والإحسان ، ورائد الإجادة والإتقان وهو للإنسان بمنزلة الصيقل للصوارم والصيرم للدراهم . ولولا النقد لما امتاز الصحيح من الفاسد ، ولا تبين الحالى من العاطل ولما قيل للإنسان فى كل عمل يعمله أحسنت وأصبت، ولوقف الناس فى سبيل الإحسان ولم يهتدوا إلى مواضع الخطأ ومواقع الزلل .

---

(١) كتب هذا النقد فى أعداد متفرقة من جريدة مصباح الشرق ، فننشره على حسب ترتيبه هناك ، وهو يتضمن نقد مقدمة الديوان وجزء قليل من الديوان نفسه ثم انقطع النقد بعد ذلك ، والغرض من نشر هذه الرسالة هنا الإتيان بمثال حسن من أدب الانتقاد ودقة النظر فيه وجمال أسلوب كتاباته ، أما ماوراء ذلك من صحة أوجه الانتقاد جميعها أو صحة بعضها دون بعض فهو مبحث آخر لا دخل له فى موضوع الاختيار .

ومحمد بك المويلحى : من أقدر كتاب هذا العصر على الكتابة فى الأخلاق ، وانتقاد العادات وله فى الترسل مالا يكاد يجاريه فيه مجار وأسلوبه فى المتأخرين أشبه شىء بأسلوب الجاحظ فى المتقدمين ، ويمتاز فى كتابته بالاعتماد فى كل ما يكتب على العلم الجم والأدب الغزير والتاريخ الصحيح .

ولا يكون الإحسان ظاهراً متبلجاً والإتقان واضحاً متألقاً إلا عند إطلاق الانتقاد وصدق القول ، وقد كان الرجل فى إقبال دولة الفصاحة وعز مقام الأدب إذا أنشأ رسالة أو نظم قصيدة عرضها على نقاد الكلام فاستحسنوا منها الحسن ونبهوه إلى القبيح فيحذف منها مالم يرضوه أو يرجع إلى تهذيبه وتنقيحه فترسخ فيه ملكة الإتقان ما تكرر عليه الانتقاد حتى بلغ بكثير من الشعراء أنهم لم يكونوا ليعرضوا قصائدهم على ممدوحيهم إلا بعد أن ينتقدها ويرضاها مَن كان مكلفاً على أبوابهم بوظيفة الانتقاد من أساتذة الكلام وجهابذة البيان ، وهذا أبو تمام ـ وناهيك بعلو قدره فى الشعر ـ قد وفد على عبدالله بن طاهر بخراسان فمدحه وكان عبد الله لا يجيز شاعراً إلا إذا رضيه أبو العميثل وأبو سعيد الضرير وكانا على بابه لانتقاد الشعر وكانا ربما أسقطا القصيدة بجملتها إذا لم يرضهما البيتُ الواحدُ منها فقصدهما أبو تمام وأنشدهما القصيدة التى أولها :

هن عوادى يوسف وصواحبه　　فعزماً فقدماً أدرك السؤالَ طالبه

فلما سمعا هذا الابتداء أسقطاها فسألهما استتمام النظر فمر بقوله :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا　　على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمرٍ عليهم أن تتم صدورُه　　وليس عليهم أن تتم عواقبه

فاستحسنا هذين البيتين وأبياتاً أخرى منها وهى :

وقلقل نابى من خراسان جأشَها　　فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه

إلى سالب الجبار بيضةَ ملكه وآملهُ غادٍ عليه فسالبه

فعرضا القصيدة على عبد الله وأخذا له الجائزة عليها .

كذلك كان انتقاد الشعر والأدب فى ذلك العهد بهذه المنزلة العالية من الاعتبار والاهتمام وبه راجت به سوق الأدب وصفا جوهر الشعر .

ثم إنك إذا التفت إلى حال الغربيين اليوم وجدت الانتقاد عندهم أنفع الآلات لتقدم العلوم والفنون وارتقاء المخترعات والمبتدعات فلا تخلو جريدة عندهم من عاملين موظفين أو ثلاثة أو أربعة لانتقاد ما يكون له قيمة من تأليف أو تصنيف، أو ابتكار أو ابتداع حتى إن المؤلف الذى لا ينتقد تأليفه منتقد منهم يعد نفسه ساقط المنزلة بين أقرانه .

ومن نكد الدنيا على الأدب فى مصر أن أرباب الجرائد فيها لم يلتفتوا يوماً الى هـذا العمل النافع بل جعلوا ديدنهم التغالى وسوء المبالغة فى مدح مايظهر فى الوجود من رسالة كاتب أو قصيدة شاعر أو تأليف مؤلف أو تعريب معرب بقطع النظر عما إذا كان مايمدحون أهلا للمديح وجديراً بالثناء ونسوا أن هـذه العادة ينتج عنها أمران مذمومان : أحدهما أن مدح الرجل فى وجهه ـ وصفات الجرائد مدح فى الوجه ـ أمر غير مرضى طالما نهى عنه الناهون . وحذّر عنه المحذرون . قال عليه الصلاة والسلام : « إذا مدحت أخاك فى وجهه

فكأنما أمررت على حلقه موسى رميضة(١)». وقال صلى الله عليه وسلم «لومشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيراً له من أن يثنى عليه فى وجهه». وقال أيضاً لرجل مدح رجلا فى وجهه: «عقرت الرجل عقرك الله»، ووجه الذم لهذا المدح أنه ينشأ عنه.

ولما كان حضرة الشاعر الأديب أحمد بك شوقى عزيز المنزلة عندنا نحب له التقدم فى الأدب والترقى فى أساليب البلاغة لما نأنسه فيه من الذكاء وحسن الذوق والانطباع الفطرى على محبة الشعر وكنا نتمنى له أن يكون شعره كله لؤلؤاً لايخالطه حصى، وذهباً خالصاً لايشوبه بهرج وكان الانتقاد - كما قدمنا وكما يعلمه - خير واسطة إلى الإحسان والإتقان والإجادة والإصابة، لابدع أن اخترنا معه سلوك هذا السبيل سبيل الانتقاد على ديوانه الذى أهدى إلينا نسخة منه عناية به واعترافاً بقدره ولم نفعل به مانفعله بغيره من المطبوعات مما لايستحق فى نظرنا الانتقاد فلا يكون له نصيب عندنا إلا السكوت عليه. ونحن لا نشك أن حضرة الشاعر الفاضل وهو العالم بمزية الانتقاد فى الشرق والغرب لابد أن يقبل ذلك منا أحسن قبول ويتبع هذه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة «أمرَ مبكياتك لا أمرَ مضحكاتك».

---

(١) الرميضة: الحادة.

— ٢ —

قيل لأفلاطون : مالك تعارض سقراط فى أقواله وأنت تحبه ؟ قال : أحب سقراط ولكنى أحب الحق أكثر منه ؛ وعلى ذلك نبدأ فى مابدا لنا الكلام عليه من ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك ونسأل الله أن نكون من الداخلين فيمن استغفر الله لهم فى آخر إعجاب المرء بنفسه واغتراره بمنزلته فيرى كل شىء فى نفسه حسناً ويمتلىء بالباطل اختيالا وعجباً . قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه : يسرنى أن أكون عند الناس مثلك فى نفسك وأن أكون عند نفسى مثلك عند الناس . فتمنى حقيقة ما يقدّره ذلك الرجل ثم تمنى أن يكون عارفا بعيوب نفسه كما يعرف الناس عيوب ذلك المعجبَ بنفسه . وقالت الحكماء : عُجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله ومن رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . ويزيد على ذلك أن الممدوح يعتقد فى نفسه الإحسان والإتقان والإصابة والإجادة فتقعد همته عن العمل ويكتفى بالدرجة التى وصل إليها متظللا بظلال ذلك المدح .

ومن كلام عمر رضى الله عنه «المدح هو الذبح» قالوا : لأن المذبوح ينقطع عن الحركة والأعمال وكذلك الممدوح يفتر عن العمل ويقول قد حصل فى القلوب والنفوس ما استغنى به عن الحركة والجد ، ومن أمثال الحرّاثين « إذا صار لك صيت بين الحصادة فاكسر منجلك » .

وثانى الأمرين المذمومين أن المدح على حسب العادة غش للناس ممن لا يتكلفون تعب الفكر فيما إذا كان العمل يستحق المدح أولايستحقه فيعتمدون على أقوال المديح ويغفلون عن قيمة الممدوح فى نفسه وكلا الأمرين تغرير بالناس لا يخفى مافيه من الضرر على العلوم والآداب .

ختم مقدمته بقوله : «وأنا استغفرالله لى ولأهلى ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أوالمنتقد العدل» .

صدر الشاعر ديوانه بمقدمة طويلة تكلم فيها عن الشعر وعن نفسه أما المقدمة من حيث صناعة الإنشاء ومن حيث اللغة فإنها تدل على أنه شاعر لا ناثر وتدل على أنها كانت تحتاج إلى إعادة نظر للتنقيح والتصحيح ولو أنه كان يحسب للانتقاد حسابا ولم يَعتمد على الإطراء والمدح وحده من أولئك الذين يدعون أن الانتقاد مما يثبط الهمة لكان تأملها بنفسه مرة بعد مرة أو كان عرضها على من ينتقدها له وثقة الإنسان بنفسه مَجلبة للخطأ ، فإذا نظرتَ فى الصحيفة الأولى وجدها وجدته يقول فيها عن الشعر : « قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلا ». والغازل هنا من قولك : غزلت المرأة القطن والكتان وغيرهما - من باب ضرب - غزْلا مدّته وفتلته خيطانا، ولا يكون امرؤ القيس « غازلا » إلا إذا كان غزَل أمراس الكتان فى قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شُدت بيذبُل
كأن الثريا علقت فى حصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

أما إذا كان غرضه الغزلَ محركا فلا يأتى اسم الفاعل منه غازلا وإنما يقال رجل متغزل وغزل ككتف وغزيل وقال فى الصحيفة نفسها عند كلامه على قصيدة أبى فِراس :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمرُ

« ليس إلا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه تعاونت فيه ملكة العربى وسليقة الشاعر على حسن الحكاية » وكان الصواب أن يقول (سليقة العربى وملكة الشاعر) لأن الملكة لكل الناس والسليقة للعربى خاصة ، قال شعرائهم :

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى أقول فأعرب

وفى الصحيفة نفسها خطأة من حيث التأريخ اذ قال : « أما بعد فما زال الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم » وأمراء العرب وأشرافهم كانوا بمعزل عن نظم الشعر وكانوا يأنفون من قوله ويعدونه غير لائق بمقاماتهم ، وحكاية حجر مشهورة ، وهى أنه غضب على ابنه امرىء القيس لما سمع أنه ينظم الشعر فأمر خادما له يذهب به ليقتله ويأتيه بعينيه أمارة على قتله فرحم الخادم الغلام فدسه فى جبل ورجع الى مولاه بعينى ظبى .

وأما ماينقل عن على عليه السلام من تلك الأشعار فمكذوب عليه

هذا من حيث اللغة والتاريخ فى صحيفة واحدة وأما من حيث الكلام عن الشعر فإنك تراه فى المقدمة مضطرباً متناقضاً فتارة يرفع الشعر العربى الى درجة عالية كقوله :

« وكان أبو العلاء المعرى يصوغ الحقائق فى شعره ويوعى تجارب الحياة فى منظومه ويشرح حالة النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :

فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول أبى فِراس :

معللتى بالوصل والموت دونه اذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

ثم نزل الى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ فى إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس . وإلى الثانى كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة فى هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية ، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزُب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها فى أجلى وأجمل صور البيان » .

وتارة ينزل بالشعر العربى إلى أدنى دركة فيقول :

« إنى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء

يحذون فيها حذو القدماء والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعراء إلا ما كان مدحا فى مقام عال » .

ثم قال فى موضع آخر عن الشعراء حتى عن آخر المتأخرين .

« وإلا فمن دواوينهم مايخلق أن يكون المثال المحتذى فى شعراء الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً فى الهوى ورسائل ، ومتخذه رسلا فى الهوى ووسائل ، وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها ، وكالبهاء زهير سيد من ضحك فى القول وبكى ، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى ، وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعزهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثه فى سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو » .

ومن كان نظره فى البهاء زهير ورأيه فيه هكذا كيف يكون رأيه فى فحول الشعراء كمسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، والبحترى ، وابن الرومى والأرجانى . ثم هو بعد ذلك ينزل بالشعر العربى إلى أن يقول :

« ثم طلبت العلم فى أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنى مسؤول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وأنى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها وإذا كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغى إبادتها كالأفعوان لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد

المديح من أوربا مملوءة من جديد المعانى وحديث الأساليب بقدر الإمكان » .

ومعنى هذا أنه وجد نور السبيل إلى الشعر العربى فى أوروبا من أول يوم وأنه وجد فى مصر أوهاما كالثعبان لا يؤخذ إلا بالحيلة فاحتال عليه بقصائده على الأسلوب العربى الأوربى الجديد لإبادة تلك الأوهام التى تمكنت من الأمة العربية وهذا أغرب ماروى لأن الشعر ألفاظ ومعان فالرجوع إلى العربية والأخذ عن أهلها واجب من جهة الألفاظ . أما من جهة المعانى فقد طالعنا ما قدرنا على مطالعته من شعر الغربيين فلم نجدهم أطولَ باعا من الشرقيين فى المعانى بل الشرقيون يفوقونهم فيها وهم إلى الآن لا يزالون فى المعانى عيالا على اليونانيين والفرس والعرب ينتحلونها ويزينون بها أشعارهم ، وأما من جهة المواضيع الشعرية والتغنى بالطبيعة ووصف الكون مما يشير إليه فى مقدمته فهو يشهد نفسه : « أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادىء العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها فى أجلى وأجمل بيان » وقد قال شعراء الشرق ماقالوا فى هذه الأبواب فما على الشاعر الجديد إلا أن يتصفح دواوينهم فيجد فيها ضالته التى ينشدها فإن رآهم قد فاتهم شىء أو أغفلوا بابا فى الشعر لم يفتحوه فليقرعه وليتحف به أهل زمانه والكون والطبيعة أمامه فى كل زمان ومكان وهو فى غنى عن التطوح بالشعر إلى أرض أوربا ليستنير بنور هداها ويحتذى الصراط المستقيم بها .

هذا ما رأيناه فى القسم الأول من مقدمة الديوان وسنتبعه بما تراه فى القسم الثانى الذى خصصه الشاعر الفاضل للكلام عن نفسه ونحن لا نشك فى أنه يحمل كل كلامنا فى هذا الباب على أحسن محمل فما غرضنا إلا خدمته وخدمة الأدب معه وهو الأدب خير مساعد ومعين .

— ٣ —

من الأقوال المأثورة « أعوذ بالله من قولة أنا » .

و « إذا أردت أن يثنى عليك فلا تثن على نفسك » .

سلك الشاعر الفاضل فى مقدمته فى الكلام على نفسه مسلكا لم تسلكه الشعراء من قبله فى دواوينهم بل كانوا يتركون لغيرهم الكلام عنهم وغاية ما رأيناه من المؤلفين للكتب العربية أنهم إذا أرادوا الكلام على أنفسهم فلا يتكلمون إلا عن أصولهم فى الأدب لا عن أصولهم فى النسب فيذكر الواحد منهم ممن أخذ وعمن تلقى وعلى من قرأ وماذا حفظ . أما الشاعر الفاضل فقد ذكر لنفسه أصولا أربعة فى النسب ولم يذكر له أصلا واحدا فى الأدب إذ قال : « أنا إذا عربى تركى ، يونانى ، جركسى بجدتى لأبى ..! أصول أربعة : فى فرع مجتمعة »

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وكل من قرأ كلامه فى مقدمته يراه يدور على أربعة أشياء : الزهو ، والسهو ، والحشو ، وسلامة النية .

فمن قوله فى الزهو: « معذرتى إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتى ماعشتُ بينهم ينظرون إليها فإذا متّ فليأخذوها من أهلى إذا جد بهم الحرص عليها . وللآخرين أقول إنى لا أزال فى أول النشأة وإن حياتى لم تحفل بعدُ بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكنى لا أثق بيومى الآتى وأخاف بعدى رجوم الظن وضلات الأحاديث ».

هذا هو الزهو المضاعف ! وصور الملوك كما لا يخفاه فى أيدى الناس وصور العلماء والشعراء فى هذا العصر فى صدور كتبهم ودواوينهم وتكهنه بحرص الناس على صورته بعد موته من ذلك الزهو أيضا .

ومن قوله فى هذا الباب فى ذكر جده وجدته (حتى توفى جدى وهو وكيل لخاصة الخديوى إسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشا لا إحسانا) وقوله حاكيا عن نفسه فى المدرسة التجهيزية (فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة وأنا فى الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لى من النظارة على المجانية بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها) .

ومن الزهو أيضاً قوله (أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوهما وترى لى مخايل فى البر مرجوة . حدثتنى أنها

دخلت بى على الخديوى إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى، وكان بصرى لا ينزل من السماء لاختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى اصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدلتك يامولاى . قال جيىء به إلى متى شئت إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر .

من كان طبيب عينيه إسماعيل وصيدليته خزائن مصر وهو فى الثالثة من عمره لا بدع إذا كان الزهو نزب صباه ورفيق حياته !

وختام باب الزهو قوله عند الكلام على وفاة أبيه : «كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومى ومنثورى مانشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتبت عليها هذه العبارة » هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوروبا فكنت كأنى أراه وإنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى من يعنى بشئونه وربما لا يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب » .

على هذا فالشاعر فى رأى أبيه خاتم الشعراء والأدباء .

ومن باب السهو عن حسن التعبير قوله عن أبيه فى مناقب جده « ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام، وهو يتقلد المراتب العالية.

ويتقلب فى المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للكمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى (سكرة الشباب) ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى » .

سكرة الشباب بإراء ضياع المال من والده سهو عن حسن التعبير كان يجل أدبه عند تعبيره عن الإرث بفضلات الموتى سهو أيضا عن حسن التعبير يعز سماعه على الوراثين لأن الإرث رزق من أطهر الأرزاق منذ خلق الله آدم فلا يقال لغنى ورث مالا ولا لملك ورث ملكا : أنه يقتات من فضلات الموتى .

ومن هذا الباب قوله عند ذكر جده وجدته ، وكان الخديوى المشار إليه (إسماعيل) يقول عنهما لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبى حليما لحلمه لسميته عفيفا لعفته » .

السهو فى التعبير هنا لا يغتفر للأديب . سأل أحد الأمراء أديباً فقال أينا أكبر ؟ فقال له الأديب : حضرت زفاف أمك المباركة على أبيك الطيب . هنا تحرز الشاعر من خطابه بأنا أكبر منك أولا وتحرز ثانياً فلم يقل أمك الطيبة بل هرب منها إلى ماهو أليق بالأدب .

ومن باب السهو فى التعبير قوله عن المغفور له توفيق باشا « فتحلى الحليم بصورة الغضب ، وليس الغضب حلية يتحلى بها » ومنه قوله عند تبشير المرحوم توفيق باشا له بتعيين أبيه مفتشاً فى الخاصة الخديوية والوعد بتعيينه هو أيضاً « ثم مد إلى العزيز يده فقبلتها واجماً وقد غلب علىَّ السرور حتى أنسانى الشعر وكان ذلك وقته » .

التعبير بالواجم هنا فى غير موضعه تقول وجم الرجل وجوماً سكت على غيظ ، وقيل: سكت وعجز عن التكلم من كثرة الغم والخوف ، والواجم العبوس المطرق لشدة الحزن ، يقال : مالى أراك واقفاً واجماً ، وهو واجم ودمعه ساجم .

ومن باب سلامة النية ما يحكيه عن المرحوم الشيخ على الليثى من قصة المنام والخرق فى الاسلام قال : حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم توضع بعد فقص علىَّ حلماً رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً فى الاسلام، ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابى يقول هـذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقى فوالله ماقالها قبل فى الإسلام أحد ، قلت : وما تلك يامولاى قال قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضـة ذهب

وكل من عرف المرحوم الشيخ على الليثى وما كان عليه من الميل إلى إرسال النكات المستظرفة أدرك لأول وهلة موضع النكتة فى مسألة الخرق فى هذه القصيدة المتفرنجة ولو كان غرضه غير التنكيت لقال (لم يقل مثلها الشعراء) ولم يقل (لم يقل أحد فى الإسلام) فحملها الشاعر الفاضل بسلامة نيته محمل التقريظ والإطراء .

ومما يدخل فى هذا الباب مانقله عن المرحوم الشيخ على الليثى أيضاً عند تكلمه على اختلال أعصاب بصره « وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى :

* محاجر مسك ركبت فوق زئبق *

وأما الحشو فى كلامه فنذكر منه شيئاً يدل عليه فمن ذلك قوله عند ذكر استدعاء المرحوم توفيق باشا له من ساحة عابدين « فخرجت قبيل الأصيل فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى » .

ومن قوله عند الكلام عن دراسته فى باريس « أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر علىّ وتعمل بإشارتى فى الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا فى سكرات الحمى تقول : أفى مثل هذا الشباب تذهبون ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومنّ على بالشفاء » .

ومن أمثال هذا الحشو كثير مما لا ينتفع به القارئ ولا يستفيد

منه السامع ويضيق بنا المقام عن سرده . وقد آن لنا أن ننتهى من نقد المقدمة ونبتدىء بنقد الشعر وموعدنا الأعداد الآتية .

— ٤ —

اختفت عادة الانتقاد للكتب عن الناس وألفت أذهانهم التقريظ مدحاً وإطراءاً فصار الانتقاد مهجوراً بينهم غريباً فيهم حتى ظنوه ذاما وحسبوه عاباً ولما وضعنا ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك موضع العناية والاهتمام به وشرعنا فى انتقاده قياماً بخدمة الأدب على عادة الجرائد الغربية فى هذا الباب وَهمَ الناس فى أننا قصدنا ذلك من وجه التحامل ولقد أخطأوا فى وهمهم فإن صحبتنا مع هذا الصاحب الفاضل لم تزل على ما كانت عليه من الصفاء ولم يؤثر عليها الانتقاد شيئا لعلمه ولعلمنا بأن الانتقاد دائر على ما قيل لا على من قال ولذلك استغربنا قيام من قام للرد علينا مستتر الاسم تحت الألف والراء كدنا نسىء الظن بصاحبنا وهممنا بالرد عليه لولا أن جمعنا وإياه مجلس فسألناه عن ذلك الكاتب فتبين لنا من أنه لم يكن يعرفه وأنه لا يقول بقوله وأن ما كتبه كان على غير علم منه وأنه لا يزال يقدر الانتقاد قدره ويحمله على حسن الاهتمام بديوانه فمن أجل هذا عدلنا عن النقد على الرد وطرحناه فى جانب المسامحة والإغضاء كما جرت عليه عادتنا مع من يتهافت علينا ويتحرش بنا لأننا لا نرى فى الكلام معه

من فائدة للقراء بل نجد من الحكمة أن نمر باللغو مر الكرام تأدبا بأدب القرآن الكريم فى قوله عز وجل (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً)

والآن نأخذ فى نقد الشعر سائلين حضرة الشاعر الفاضل أن يكون دائم الاعتقاد فى محض نصحنا وصفاء مودتنا وأن لا يحمل شيئاً من كلامنا محمل السوء. وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه (لا تظنن بكلمة تخرج من أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملا).

قال حضرة الشاعر الفاضل فى أول الديوان من باب (الأدب والمديح).

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

قوله خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء لأن الخداع لا يكون بالحقيقة وإذا أردت أن تخدع الشوهاء، فقل لها حسناء وهو ينافى قوله فى البيت الثانى:

ما تراها تناست اسمى لما كثرت فى غرامها الأسماء

وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا تعلمه ويعجبنا من هذه القصيدة قوله:

يوم كنا ولا تسل كيف كنا تتهادى من الهوى مانشاء
وعلينا من العفاف رقيب تعبت فى مراسه الأهواء
جاذبتنى ثوبى العصى وقالت أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى خداع العذارى فالعذارى قلوبهن هواء

وهذا من بديع الكلام وجيد الشعر .

ومما نعده من محاسنه ونراه من المعانى المبتكرة :

سعت لك صورتى وأتاك شخصى وسار الظل نحوك والجهات
لأن الروح عندك وهى أصل وحيث الأصل تسعى الملحقات
وهبها صورةً من غير روح أليس من القبول لها حياة

ومما نعيبه عليه قوله من أبيات :

وقطعة خد بينما هى جنة لعينيك يارائى إذا هى نار

لأن القطعة بغير الخد أنسب، ولو قال صفحة خد لكان التعبير أحسن وأجمل

أما بقية الأبيات فهى من رائق الشعر ورقيقه وهى :

إذا برزتْ ود النهار قميصها يُغير به شمس الضحى فتخارُ
وإن نهضت للمشى ود قوامها نساء طوال حولها وقصار
لها مبسم عاش العقيق لأجله وعاشت لآل فى العقيق صغار

ومما ينتقد عليه قوله فى أبيات :

وكل ذى همة شريف يقوم للخلق بالخدامة

لأن لفظة «خدامة» ليست من اللغة العربية فى شىء .

٥

قال حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك من قصيدة فى باب الوصف من ديوانه يصف ليلة راقصة فى سراى عابدين :

أقبلت شموس ضحى ما لهن منتقب
الظـــلام رايتهـا وهى جيشه اللجب

تشبيه الظلام بالراية لهذا الجيش اللطيف جيش شموس الضحى لا مناسبة له إلا إذا أراد أن يشبهه بجيش خراسانى يقوده أبو مسلمُ تحت الراية السوداء .والعجب لهذه الشموس المسفرة التى ليس لها منتقب كيف أنها لم تمزق هذه الراية .

وقال منها فى وصف العزيز :

فهو بينهم عمر والوفود تنتدب

تشبيه العزيز بعمر رضى الله تعالى عنه فى هـــذا المجلس مجلس الطرب والعزف والرقص والقصف والقدود والخدود والصـدور والنهود والنحور والعقود غير لائق بالمقام إلا إذا أراد الشاعر بعمر عمر ابن أبى ربيعة .

وقال منها :

فهى آنة صعد وهى آنة صبب

لايقال فى اللغة « آنة » بل يقال « آونة » وهى جمع « الأوان »

أو الوقت والحين يقال هو يفعل ذلك آونة وأتا آتيه آونة بعد آونة .

ومن قوله بعد أن وصف المائدة «البوفيه» .

والطعام حاضره والمزيد منتهب
بارد ومن عجب يشتهى ويطلب

كذا البيت وليس من العجب أن يشتهى البارد ويطلب .

وقال منها :

والخصور واهية بالبنان تنجذب
سالت الأكف بها فهى أغصن نهب

الغصن لايجمع فى اللغة إلا على غصون و غِصنَة وأغصان ،ومطلع هذه القصيدة من المطالع البديعة وهو :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

ومن محاسنه فيها قوله فى الخمر :

راحة النفوس وهل عند راحة تعب
ياديم خف بها لا كبابك الطرب

ومن المحاسن أيضاً قوله :

تنجلى ولى خلق ينجلى وينسكب

ومنها فى وصف « السراى » :

أشرقت نوافذه فهى منظر عجب
واستنار رفرفه والسجوف والحجب
تعجب العيون له كيف تسكن الشهب

البيـــــان

« لأحد الأدباء المعاصرين »

قال لى أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم : إنى لتأتينى أحياناً رِقاع الاستعطاف فأكاد أهملُها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة لولا أن الله تعالى يلهمنى نيات كاتبيها وأين يذهبون . ولولا ذلك لكنت من الظالمين .

ذلك مايراه القارىء فى أكثر المخطوطات التى يخطها كاتبوها فى رسائل الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزلٌ فى موضع الجدّ ، وجد فى موضع الهزل، وإسهاب فى مكان الإيجاز ، وإيجاز فى مكان الإسهاب ؛ وجهلٌ يفرق مابين العتاب والتأنيب والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف. وقصور عن إدراك منازل الخطاب وتمواقفه بين السّوقه والأمراء . والعلماء والجهلاء ، حتى أن الكاتبَ ليُقيمُ فى الشوكة يُشاكُها ، مناحة لايقيمها فى الفاجعة يُفجعُ بها، ويكتب فى الحوادث الصغار . مايُكبر أن يكتب مثله فى الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوّه ، ويناجى أجيره . بمثل ماينا جى به أميره .

ذهب الناس فى معنى البيان مذاهب متفرقة ، واختلفوا فى شأنه اختلافا كثيراً ولا أدرى علام يختلفون ، وإلى أين يذهبون وهذا لفظه دال على معناه دلالةً واضحة لا تشتبه وجوهُها ، ولا تتشعب مسالكها .

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم فى النفس وتصويره فى نظر القارىء أو مَسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ولا يقصر عنه . فإن عَلِقت به آفة من تينك الآفتين فهو العى والحصر .

جَهل البيانَ قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها فى حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس عليها أنفاسها . فاذا قُدِّر لك أن تقرأها وكنتَ ممن وهبهم الله صدراً رحباً ، وفؤاداً جَلداً ، وجناناً يحتمل ما حُمِلَ عليه من آفات الدهور ورزاياه . قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذَر فى القول والتبسط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع . فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها(١) ويتلمظون بها تلمظَ الشفاه بريقتها

---

(١) الجرة : ما يجتره الحيوان .

حتى تسفُلَ وتتبذّلَ وحتى ما تكاد تُسيغُها الحلوق ولا تَطرف عليها العيون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولقد يخيل لى أن أكثر الكتاب فى هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس وإن كتابتهم أشبه شىء بالأحاديث النفسية التى تتلجلج فى نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحدته فإنى لا أكاد أرى بينهم من يحسن أن يضع فمه على أذن السامع وضعاً محكماً فينفث فى روعه مايريد أن ينفُث من خواطر قلبه وهواجس نفسه.

البيان صلة بين متكلم يُفهم وسامع يَفهم . فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط ، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك واحرص الحرص كله على ألا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربى بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية . ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ومدحهم وهجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم . وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ، ويتغزلون ويتشببون ويستعطفون ويسترحمون ، وبأى لغة يحاول أن يكتب كتابته إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه .

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفّع والصاحب والصابى والهمذانى والخوارزمى وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ثم أقرأ ماخطه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار بما يشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذُها مسبلة ستورُها إلى جوٍّ يسيل قراً وصراً، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأنى أقرأ لغة لاهى بالعربية فأغتبط بها ولا هى بالعامية فأتفكه بأحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين اثنين . إما رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة . وربما كان كتاب تلك المخطوطات أحوج إلى الاستمداد من قارئيها ، فإذا علِقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها فى رُوع قارىء كتابته أدوَن بما أخذها فيدلى به آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة وأكثرَ تشويها ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كرّ الغداة ومرّ العشىْ . وإما طالبٌ قُصارى ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها وإملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها ومختلفاتها وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها . أما روحها وجوهرها فإن أكثر أساتذه البيان علماء غير أدباء . وحاجة طالب

اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى له بسرها ويفضى إليها بلبها وجوهرها ، أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . وعندى أن لا فرقَ بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان . فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيده إلا من أستاذ كملت أخلاقه وحسنت آدابه كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مُبين .

ولا يُقْذَفنّ فى رُوع القارىء أنى أحاول استلابَ فضل الفاضلين أو أنى أنكر على فصحاء هذه اللغة ماوهبهم الله من نعمة البيان فما هذا أردت ولا إليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليلٌ فى بلد يقولون عنه إنه مهد اللغة العربية ومرعاها الخصيب .

وبعد فإنى لا أرى لك ياطالب البيان العربى سبيلا إليه إلا مزاولةَ المنشئات العربية منثورها ومنظومها والوقوفَ بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج ، فاذا رأيتَ أنكَ قد شُغفت بها وكلفتَ بمعاودتها والاختلاف إليها وأنْ قد لذَ لك ما يلذ للعاشق من زورة الطيف فى غرّة الظلام فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ولا تَلو على شىء مما وراءك حتى تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثنك نفسك أنى أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه فإنى لا أحب أن تكون سارقا ولا مختلساً . على أنك إن ذهبت إلى ماظننت أنى أذهب إليه فى نصيحتك لم يكن دركك دركا ، ولا بيانك بيانا . وكان كل ما أفدته[1] من ذلك أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لاتناسب بين أجزائها ، وبُردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها ، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة فى البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومهم فقنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا . فإذا جدّ الجدّ وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شىء من هواجس نفوسهم رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا عن دفائنها فإن وجدوا بينها مايدل على المعنى الذى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعا وحشروه فى كتابتهم حشراً . وإلا فإما أن يتبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو يهجروا تلك المعانى إلى أخرى لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولا حقاتها . فهم لا بدلهم من إحدى السوءتين . إما فساد المعانى واضطرابها أو هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحرص الحرص كله على ألا تكون واحداً منهم ، واحذر أن

---

(١) أفاد واستفاد بمعنى : حصل على الإفادة .

تصدق ما يقولونه فى تلمس العذر لأنفسهم عن ذلك من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة ، وأنهم ما لجئوا إلى التبذل فى التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه البسائط من المعانى بعد ما وسعت من دقائق العلوم مالا قِبَل لغيرها باحتماله وقدرت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وضمائر السرائر على الذى عيَّتْ به اللغات القادرات .

وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها وإنما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها والتغلغل فى طيائها . واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التى لا تثلج صدراً ، ولا تشفى أواما .

وكل ما يؤخذ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على إعلام لهذه المعانى المستحدثة وهو فى مذهبى أقل الذنوب جرما وأضعفها شأناً مادمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق . فالأمر أهون من أن نحارفيه وأصغر من أن نقضىَ أعمارنا فى الوقوف ببابه والأخذ والرد فى شأنه والمساجلة والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق إليه وأجداها عليه .

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشئات العربية فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك

ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتقطع دونها أعناق الرجال . فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس لهم ذوقاً سليما ، وقريحة صافية ، وملكة فى الأدب ، كأنها مصفاة الذهب . فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يُلقى فيها من البذور الطيبة عدت وبين جنبيك ملكة فى البيان راسخة يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه تناثر الورود والأنوار ، من حديقة الأزهار .

الموازنة بين الشعراء

« للشيخ محمد المهدى »[1]

قد رأيتُ السواد الأعظم من المفضلين متسرعا فى الحكم جائراً فقد يحكم للشاعر بالسبق وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين مما استجيد من كلامه وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذى رآه من كلامه كان دون الذى رأى من كلام السابق ولو اطلع على كل ما قال الشاعران وعلى أسباب قولها وقارن بين معانيهما المتحدة الموضوع وأساليبهما ومقدار تأثرهما بالحوادث التى قالا فيها الشعر وحاذى البديهة بالبديهة والروية بالروية لعدل عن حكمه ولما أطلق القول فى التفضيل بل قال فلان أشعر فى قصيدة كذا ومعنى كذا والآخر أجود فى كيت من جهة المعنى أو الديباجة أو حسن التصوير ولا يسوغ له أن يحكم على الإطلاق إلا بعد أن يستقرى المحاسن

---

(١) الشيخ محمد المهدى : هو أحد علماء اللغة العربية فى هذا العصر ، وكبير من كبار أدبائها ، وفرد من أفراد مؤرخيها ، ويمتاز بحسن الذوق ودقة النظر فى الانتقاد ، وهو — وإن كان لا يكتب إلا قليلا — فإليه ينسب الفضل فى تخريج كثير من كتاب هذا العصر ، وتقويم ملكاتهم وتهذيب أذواقهم .

والمساوىء ، ويقارن بين ما لكل من الشاعرين منهما حتى إذا ماوجد أحدهما أنضر ديباجة وألمع معنى وأغزر فنوناً وأحضر بديهة وأقل سقطاً وأكثر غوصاً على المعانى وأجمل أخذاً وأوفر مادة حكم له على الآخر حكما يؤيده الدليل الصحيح والذوق السليم لاكحكم كثير من المفضلين الفضوليين ، ومنهم جماعة من النحاة عرضوا قوانينهم على بعض الشعر الذائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها فخضوا من فضله ونسوا أن قواعدهم محكومة بشعره لاحاكمة عليه ومنهم آخرون جملتهم المعاصرة والمنافسة على الحط من شعر أقرانهم، وقد قلدهم فى ذلك بعض المؤلفين فخاضوا فى أقدارهم وهم لايشعرون ، وقد ينتقد الحضرى البدوى فيعيبه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوى فى باديته أشعر من الحضرى فى حضارته .

ولا بد أن يكون الوازن من أهل الذوق الصحيح والاطلاع الواسع محيطا بكل ما قال الشاعران بعيداً عن الهوى والتقليد دقيق النظر فى المقابلة بين المعانى والألفاظ فيقارن المفردات والأساليب والمعانى المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تعليل كل تحسين أو تقبيح بما يقنع حتى يرسم للنظر ما يهيىء له الحكم فلا يسعه قبل أن يأتى على الموازنة إلا النطق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى فإنه قال : لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين قصيدتين من

شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى ثم احكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علماً بالجيد والردىء ثم ذكر مساوىء الشاعرين فسرد سرقات أبى تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنيسه واضطراب وزنه ثم ذكر ما وجده من ذلك للبحترى وقارن بين ما افتتح به القول من الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك ونبه على الجيد وفضله على الردىء وبين علل ذلك، ثم قال: وبقى مالم يمكن إخراجه إلى البيان وهو مالا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفرسين والجاريتين تتساويان فى كل شىء من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحداهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك، ثم ذكر ميزان الموازنة لمن لم يكن من أصحاب الذوق السليم فحقه النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على النابغة الجعدى مثلا فإن عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا فحسبه أن يكون مع الجمهور .

أما فائدة المقارنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة النقد وكشف القناع عن المحاسن لتُحتذى والمقابح لتُجتنب، وكما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ولا يجول فى ميدان فسيح من المعانى ولا يقدر الأشياء قدرها

إلا بالمقارنات التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع، ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه لما بقي كثير منا مضطرباً اضطرابهم في مقادير الشعراء.

ضرورة التعريب

«للشيخ محمد الخضرى»(١)

يقولون إن الحق في التعريب إنما كان لأمة سلقت وبادت فلم يبق لها من أثر وإن ماكان يباح للأعراب في بواديهم على قلة حاجهم لا يباح مثله لنا في القرون المتأخرة على كثرة الحاج، وهذا كله بنوه على قاعدة لا أساس لها وهي تشبيه اللغة بالدين في التمام، فكما أن الله

(١) الشيخ محمد الخضرى: شيخ من جلة شيوخ العصر، وعالم من أكبر العلماء بالشريعة والتاريخ والأدب، وكاتب من أفراد الكتاب معروف بالمتانة والدقة وجمال الأسلوب وقوة الحجة، ويمتاز باستنارة ذهنه وحبه للاصلاح وبغضه للجمود على كل قديم في العلم أو الدين، وله في الاجتماعيات والمباحث الدينية من الرسائل ما يسمو به إلى منزلة المصلحين.

سبحانه أتم دينه الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فكذلك العرب قد أتمت وضع لغتها ولم يبقَ من بعدهم من يحق له أن يضيف إليها كلمة جديدة ، كما أنه ليس لمسلم أن يضيف على دينه حكما جديداً .

لكن الفرق بين الأمرين ظاهر فإن الدين وضع إلهى شرعه من له حق التشريع والإلزام وهو الله سبحانه وتعالى وأتم وضعه على قواعد راسخة وأساس ثابت فلم يبق لأحد مجال أن يزيد على هذه القواعد أو ينقص منها ؛ أما اللغة فالمقصد منها الإبانة والإفصاح وهى من وضع الأفراد يتجدّد بتجدّد الحاجات .

وليس من قصدى أن أبحث الآن فى أمر اللغات أهى توقيفية أم وضعية فإنّ ذلك مما فرغ منه العلماء وانتهى بهم البحث إلى الرأى الثانى حتى أن كثيراً من أصحاب الرأى الأول قالوا إن المراد بما وضع أولا هو الكلمات التى تدل على مثل السماء والأرض والهواء مما هو موجود منذ وجد الإنسان ، أما ادعاءُ أن الألفاظ الدالة على المخترعات والمحدثات مما عُلمه الإنسان الأول آدم صلوات الله عليه فهو مكابرة للمحسوس .

ومتى ثبت أنها تتجدّد بتجدّد الحاجة فالمحتاج من المتمسكين بها متى علم أصولها ولهجتها له أحق التعريب بالضرورة كما كان هذا الحق لسلفه .

ولا أدرى ما الفرق بين من عُلم اللغة تليقناً من أبيه وأمه وبين

من عُلمها من معلم غيرهما واعتادها بعد ذلك فى كلامه وكتابته حتى صارت له ملكة بحيث يمكنه أن يقف ساعة فيخطب بها من غير أن يحيد عن طريقها ويكتب كتاباً صحيحاً يُقرأ فى ساعات أو أيام ؟

إن الذين يخالفوننى فى الرأى ويقولون بالتوسع فى استعمال المفردات لاينجون من تغيير الأوضاع والدلالات العربية .

هم بلا شك يتفقون معى أن حق التغيير للحاجة ثابت لنا ، ومتى اتفقنا على نيل هذا الحق لم يبق إلا التخيير بين سهل وأسهل ومفيد وتام الإفادة . ولا مراء فى أن اللفظ الذى وضعه واضعه للدلالة على شىء اخترعه أسهل فى الدلالة وأتم فى الإفادة لأنه وضع بإزائه تماماً كما وضع لفظ الإبريق بإزاء تلك الأداة التى نعرفها بخلاف الكلمة التى تتصيدها من موات اللغة فإنها إما أن تكون موضوعة لشىء هو أعم فنخصصها ويلزمنا إيجاد القرينة للدلالة على ما نريد فنحتاج إلى لفظ وقرينة وإما أن تكون مستعملة فى شىء فيه مجرد مشابهة كما بين الأتومبيل والسيارة فنحتاج لاستعمال لفظ واحد للدلالة على معنيين أو معان كثيرة فالسيارة استعملت للدلالة على معنى هو القافلة أو الركب فإذا قلت جاءت سيارة هل يفهمنى المخاطب بمجرد لفظى ؟ أظن لا ، بل لابد مع ذلك من كلمة أخرى مبينة للمراد .

لا أدرى ما المانع من أن يدخل فى اللغة ترام ويقال أترم ومُترم كما قالوا لجام وألجم وملجم !

إن الكلمة التى نريد اصطيادها قد وضعها واضعها بالضرورة لتدل على معنى خاص فإذا نحن أخذناها واستعملناها فى شيء جديد لم نكن قد جرينا على لغة العرب لأننا خالفنا أوضاعهم ومقاصدهم فهم وضعوا بشكى وجمزى مثلا للناقة السريعة فإذا جعلنا كلمة منهما بإزاء النزام نكون بلا شك وضعنا وضعاً جديداً لم يسبقنا إليه سابق . واجتلاب مثل هذه الألفاظ بالنسبة لمحفوظ اللغة كوضع ألفاظ جديدة مؤلفة من أحرف اللغة فسيان فى الاعتراض على رأيهم أن نقول للترام بشكى وأن نقول له ترام لأنهما كلاهما استبداد بوضع اسم لمسمى لم يكن له وجود قبل الآن إلا أن وجه الضرر فى الأول ظاهر كما يتضح وجه المنفعة فى الثانى فإنا فى الأول نجرى على خطة لا أساس لها مع وصف الخروج عن أوضاع المتقدمين وفى الثانى نجرى على خطة اتبعها سلفنا مع الوضاحة التامة فى الإسم والمسمى ، ولا أدرى بعد ذلك ما الذى يدعونا إلى تعسف الطرق ولعلهم يرون فى ذلك رأياً فيقولون إنا باتباع الطريق الأول حافظنا على ما بين دفتى القواميس فلم نحد عنه قيد شبر ولم نخرج عما نطق به العرب فى بواديهم وفى ذلك من احترام الآباء وإقناع الناس بغنى اللغة العربية وثروتها حتى لا يهزأ بنا هازىء فيقول إن لغة تربو عدة كلمانها على الثمانين ألفاً محتاجة إلى ما يكملها ويسد ثلمة فيها .

أما دعوى أن هذا محافظة على ما هو عندنا فغير صحيحة لأنها إنما تكون بالمحافظة على الاسم والمسمى الذى اللفظ بإزائه وإذا لم نفعل

ذلك كنا قد خيلنا على الناس تخييلا لا قيمة له وارتكبنا فى التغيير من أوضاع القواميس مالايخفى ، لأننا إذا كتبنا لفظاً من هذه الألفاظ التى اخترنا التوسع فيها واستعمالها لشىء جديد آنذكر فى قواميسنا معنيها القديم والحديث فنكون قد ابتدعنا وأودعنا السامع والمتعلم فى حيرة أم نترك ذكر المعنى القديم ونقتصر على الحديث . ووصف هذا بالإفساد فى لغة المتقدمين واضح لايحتاج إلى بيان وخير منه أن نذكر لفظ ترام مثلا بعد الاتفاق على لفظها ونذكر بجانبها معناها وإنهما عرب للدلالة عليه ونبين تاريخ تعريبها فيكون ما وضعه المتقدمون معروفاً وحده وما ألحقه باللغة المتأخرون معروفاً وحده هى المحافظة الحقيقية على ماورثناه من سلفنا .

وأما أن يغتر مختر بكثرة ألفاظ اللغة حتى لا يحتاج إلى مزيد ففيه غلطتان كبريان فان الثروة المزعومة لانقول بها ، لأنا إن طرحنا منها المترادف ماوجد معنا بعد ذلك أكثر من الثلث بهذا العدد فكثيراً مانجد المعنى الواحد له اسمان فأكبر إلى خمسمائة اسم كما قالوا فى السيف والخمر والهر والعسل وما شاكل ذلك وهذه ليست بثروة .

والثروة التى أسلم بها إنما هى فى أسماء المعانى وليست داخلة فى موضع بحثنا .

وأما عدم الحاجة إلى مزيد فهذا لا تدعيه لغة من لغات الأمم الحية

لأن الأمم كلما كثرت حاجاتها وتجددت اضطرت إلى المزيد من الألفاظ في اللغة وهذا هو سرّ الحركة الدائمة في لغات الإفرنج بحيث ترون مجامعهم في شغل دائم لا يألفون أن يجدوا يوماً ما في لغتهم كلمة زائدة دلت على معنى جديد، وأكثر أحوالهم الاستعارة من غير لغتهم . وإذا كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع فانا نرى أنفسنا في حاجة إلى استعمال مخترعات المخترعين والتعبير عنها .

أدوار الشعر العربى

« لأحد الأدباء المعاصرين »

كانت العرب فى جاهليتها أمة هائمة متبدّية على الفطرة البيضاء النقية لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تغير المدنية فى وجهها ، تطلع الشمس فى آفاقها فتتبسط على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها من حيث لا تعترض فى سبيلها من المظلات سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجرى ماؤها لا تعبث فيه الأيدى بترييع ولا تدوير ولا تقويس ولا تعريج ويجرى ماؤها فى سبيله متدفقاً حيث ينساب به تسلسله واطراده لا تلوى به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب فى وجهه القناطر . ويهيم وحشها فى جبالها وطيرها فى أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود ، ولا الآخر قفص محدود . والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية مجلوة تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وجوهرها .

ينطق العربى بما يعلم ، ويقول مايفهم ، ويصوّر مايرى ، ويحدث عما تمثل فى نفسه حديثا صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل لأن كل ماهو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب ومرافق وأدوات على الفطرة السليمة الخالصة ، فأحرى أن يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن شعر العربى والعرب على فطرتهم، وذلك معنى قولهم الشعر ديوان العرب لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية وتمثال خواطرهم الحقيقية والخيالية فإن ظن ظانٌّ أن التماثيل والنُصُب والمخطوطات والمنسوجات والصور والتهاويل وبقايا الآثار وقطع الأحجار التى نراها فى خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربى على تاريخ العرب قلنا له مامن ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدث المؤرخون يعبث الأيدى به ولعبها بسطوره وسجلاته أما الديوان العربى فصورة صحيحة وآية مقدسة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت، بعد ذلك جوار بالسعد والنحس فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها وهاجر معها شعرها بهجرتها فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان بشار وأبو نواس فطرقوا معانى لم تكن مطروقة ونهجوا مناهج لم تكن معروفة فقلنا لا بأس فالشعر العربى أوسع من أن يضيق بحاجات أمته فى جميع شئونها وحالاتها حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية فسلك إلى أكثر معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف فثغر فى الشعر العربى ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها باباً أفوَهَ لا يمنع ماوراءه ولا يدفع ما أمامه ، فأصبح الشعرُ على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدى والسراج والجزار والحلى وأمثالهم أشبه شىء بتلك الآنية الفضية أو الصينية

التى يضعها المترفون فى زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهراً زاهياً وبطناً خاوياً لا تشفى غلة ولا تبض بقطرة ولا تسمن ولا تغنى من جوع . ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة فجاءوا بشىء هو أشبه الأشياء بتلك المقاييس والتفاعيل التى وضعها الخليل ميزانا للشعر لا يروق لفظها ولا يفهم معناها .

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلا فى هذا العهد الأخير أخذوا بيده ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فأصبحنا نرى فى إيراد الكثير منهم أجسام أبى نواس وأبى عبادة وأبى تمام والشريف وبشار لا فرق بينهم وبينهم إلا أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الأبكار .

وصف كتاب النظرات

« لحافظ إبراهيم »

(وهو كتاب أرسله الكاتب إلى المؤلف)

قدم أحد أقيال اليمن إلى دار الندوة فبصر فيها بصاحب الشريعة الإسلامية وهو إذ ذاك غلام مراهق فقال لمن حضر من القوم إن هذا الغلام تارة ينظر إليكم بعيني لبؤة وتارة بعيني عذراء خفرة . فلو أن نظرته الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً . ولو أن الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم . وكذلك أراك في نظراتك إلى قومك أيها الكاتب الكبير . فلولا أنك غير معصوم وأن الله قد أجل مقام النبوة عن الأشباه والنظائر لقلت ما أشبه هذه بتلك والسلام .

الإنشاء والعصر

« لإبراهيم بك المويلحى » (١)

سمعنا كلاماً يجرى فى كثير من مجالس الباحثين المدققين أولى الأدب والفضل عن السبب الذى وقف بصناعة الإنشاء والتحرير عند هذا الحد من الضعف والخمول مع تزايد المدارس وانتشار التعليم وكثرة المطابع واتساع دائرة المطبوعات وإطلاق حرية القول وتعدد فنون المطالب والمواضيع فى هذا العصر خاصة . وما بالنا نرى دوائر بقية الصناعات العالية تتسع وتنمو على نسبتها ودوائر الكتابة والإنشاء تضيق وتنكمش وتنحط ولا ترتفع فلا يمضى عام ولا يمر حول إلا ونجد دائرة الطب والهندسة أو المحاماة قد دخل فيها عدد ليس بقليل من الأطباء أو المهندسين أو المحامين وينقضى العام فى أثر العام ولا نسمع بظهور كاتب واحد ينضم إلى دائرة التحرير من بين أولئك الألوف المؤلفة من طلبة العلوم العربية فى المدارس وغيرها . وما لنا نجد أهل تلك الصناعات يسلكون سبيل الاتقان والاحسان فى دائرتهم على كل

---

(١) إبراهيم بك المويلحى : لا أكون مبالغاً إن قلت إن المرحوم إبراهيم بك المويلحى هو شيخ الكتابة العربية فى هذا العصر وإنه هو الذى علم الكتاب كيف يرقون بلغتهم إلى المنزلة التى وصلت إليها اليوم . وكيف يودعون فى كتاباتهم النكات البديعة والمعانى المستطرفة ، ويخرجون بها من ذلك الجمود القديم .

حال بممارسة العمل ومزاولة الصنعة ونجد أهل صناعة الإنشاء قد وقفوا عند حد محدود ونقطة معينة لا يتعدونها ولا يتخطونها وارتضوا لهذه الصناعة العالية وذلك العلم النفيس أن يبقى على الضعف والخمول ويقيم على النزول والهبوط .

ولا يقال هنا إن قلة الفائدة المادية من هذه الصناعة هى التى تصرف بوجوه الطلبة عن طريق الإتقان فيها والتضلع منها فإنها صناعة عامة تطلب لذاتها ويزدان بها غيرها من الصناعات ، وحسن النطق والتعبير أمر يرغب فيه كل إنسان وأعظم وجوه التفاضل بين البشر تنصرف إلى قوة البيان وحجة اللسان .

وليس الاشتغال بالصناعات الأخرى التى يطلب بها الرزق ويستعان بها على كسب المال لسد حاجات المعيشة مما يمنع من ممارسة تلك الصناعة الشريفة ويشغل النفس عن التحلى بمزاياها الجليلة فالقاضى يحتاج إليها والمحامى ينتفع بها والحاكم لا يستغنى عنها ، وجميع أرباب الوظائف المتنوعة والمناصب المختلفة لا يخلون من الرغبة فيها بل لو نزلنا إلى بقية أهل الحرف والمهن من التجار والصناع وباعة الأسواق لوجدناهم يتطلعون إلى المشاركة فيها ويتمنون الحظوة بها وهم فى هم الحرفة وكد المهنة ، وقد علمنا أن الرجل من أهل العصور السالفة يكون خبازاً وشاعراً مجيداً ويكون جزاراً وكاتباً أديباً ويكون حداداً وخطيباً بليغاً .

يلا فكون السبب إذن فى انحطاط صناعة الإنشاء والتحرير وقلة

عدد المشتغلين بها راجعاً أبدا إلى ضعف الفائدة المادية منها وتحول النفوس عنها لالتماس الربح من وجوه الصناعات الأخرى ولا لفقد الرغبة فيها لذاتها فإنها زينة كل صانع وحلية كل ناطق، وغرة كل علم وفن، وإنما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين للعلوم العربية بين طلبة المدارس وضعف العناية فى اختيار الكتب النافعة للتدريس . وليس هذا فى نظرنا السبب الوحيد لما نشاهده من التأخر والانحطاط فى صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها فإنك مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع فى تربية ملكة الإنشاء فى أذهان التلاميذ التى عليها المعول فى حسن الصناعة لأن المدة لدرس اللغة العربية فى المدارس لا تكفى لغير الحصول على أصول اللغة وقواعدها ولا تفيد فى تكوين الملكة لشىء صالح، ولا يخفى عن علمك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول فى الدرس ولا يكاد يسيغها ولا يتناولها إلا كما يتناول المحموم مر الدواء ولا تمكث فى صدره إلا ريثما يمجها عند أخذ الشهادة وإن هى ثبتت فى حفظه ورسخت فى فكره فلا تكون على صفحات قلبه إلا كما هى على صفحات الكتب لا يدرك وجوه استعمالها ولا يعلم أبواب التصرف بها والتطبيق عليها فإذا جئت له بصحيفة من كتاب لم يتوقف فى إعراب ألفاظها على وجه الإحكام والصواب ولكنك إذا طلبت منه أن يقرأها لك سرداً لم يسلم على لسانه سطر واحد فيها من اللحن وإذا أخذته على كتابة بضعة أسطر فى أى شأن كان لم تخرج من يده خالية من الخطأ ، على مثل هذا

يخرج المتخرجون فى المدارس سواء الفائز منهم بالشهادة والخائب فيها ثم ينصرف كل واحد منهم إلى ماينصرف نحوه من الأعمال والأشغال التى تلهيه عن كل صحيفة وكتاب ولايجد أمامه مجالا لنمو ملكة الإنشاء ولافى وقته متسعاً للانكباب على مطالعة الكتب النافعة فى إتقان الصناعة ولا يرى بين يديه مايبعث فيه الشوق ويحيى الرغبة لممارستها ومزاولتها فإذا هو انتهى فى يومه من عمله إلى بيته اشتغل فيه بأهله وإذا خرج إلى السوق اشتغل فيه بالناس والناس قد أصبحوا جميعاً فى شغل شاغل وهمّ متواصل من ضروب هذه المعيشة الحديثة وفنون المدنية الحاضرة فقل أن ترى فيهم من يجلس لمطالعة فى كتاب أو يلتفت إلى محاضرة فى أدب أو يحفل بمناظرة فى فن فيأخذ معهم فى طريقهم ويسير على نهجهم فتتلاشى منه ملكة العلوم بدل أن تنمو ، وتنقص رغبته فيها بدل أن تزيد والفكر إذا لم يجد ماينبهه خمد ، والذهن إذا لم يصادف مايحركه جمد .

أما إذا ما ابتلاه الله بالدخول فى خدمة الحكومة فقل ياضيعة العلم والأدب ويا بؤس صناعة الإنشاء والتحرير ويازوال ملكة الإفصاح والتعبير إذ يلتقى هناك لساناً جديداً ولغة حديثة لايهتدى فيها إلى قاعدة ولاترتبط برابطة ولا تفضل لغة البرابرة إلا بأنها تسطر دونها وتدون فيضطر المسكين أن يمحو من ذهنه جميع ماتعلمه وتلقاه من قواعد اللغة وأصولها ويحمدالله فى نفسه على زوال الحاجة إليها وحسن خلاصه من عناء التذكرة لها وطول الاشتغال بها ، ولوأنه ذهل يوماً وجاء فى

بعض عمله بجملة صحيحة وعبارة مستقيمة اللغة وانحرف عن ذلك اللسان المصطلح عليه شيئاً قليلا لأصبح عرضة للتهكم عليه والاستهزاء به بين العمال فيعمد إلى التوبة من الذنب ويمتنع عن معاودة الإثم ولا يجد له من سبيل إلا أن يجرى معهم فى مضمارهم ويأخذ بلسانهم فيأمن من مكرهم .

فأنت ترى على هذه الحال أن السبيل إلى تربية ملكة الإنشاء قبل الخروج من المدرسة غير ميسرة وبعد الخروج منها متعذرة وأن مزاولة الأعمال ومخالطة الناس تعين على زوالها وتبعث على خمودها . إلا أنه قد بقى لدينا مع ذلك باب كان يرجى منه النجاح فى نمو تلك الملكة والتدرج إلى اتقان صناعة التحرير وهو باب الصحف والجرائد فإن الناس إن كانوا قد غفلوا عن مطالعة الكتب وأهملوا النظر فى بطون الدفاتر فإنهم استبدلوها فى أوقات فراغهم بمطالعة الجرائد المنتشرة على الأيدى فى كل يوم وأصبحت النفوس متولعة شديدة التولع على أخبارها والتسامر بأقوالها وصارت بينهم شيئاً من لوازم المعيشة فى كل يوم لا يصبرون عنها ولا يستغنون عن تلاوتها وأقاموها لديهم مقام كل سفر وكتاب وتعلقت نفوسهم بهذا الشىء الحاضر على الدوام بين أيديهم فى كل مكان فكان المأمول أن طول انكبابهم على مطالعتها عند كل صباح ومساء ينتهى على مرور الزمن فيهم باكتساب ملكة الإنشاء وسرعة الوصول إلى المنزلة الرفيعة فى حسن التعبير والتحبير ولكن من سوء الحظ أن الجرائد السائرة لم تلتفت إلى هذا الغرض

الجليل ولم تعمل لهذا المقصد النبيل ولم ير أربابها أن يتعبوا أنفسهم ويكدوا خواطرهم للتفنن فى بلاغة القول وفصاحة التعبير وانتقاء الألفاظ وتنويع التركيب وتجديد الأسلوب وما شابه ذلك من محاسن هذه الصناعة التى تشوق النفوس وتطرب إليها القلوب وتأخذ بمجامع اللب ويلطف تناولها على الملكات وتحن القرائح إلى اقتباسها وتحرص الأذهان على اقتنائها فتتولع النفوس بمحبة الاشتغال بها وتنصرف الأفكار إلى الترقى فى مراقيها وتتكون فيها من إدمان المطالعة بضاعة نفيسة تذهب بالناس إلى طلب التزيد منها فيحلو لهم الرجوع إلى مراجعة كتب الأقدمين ويلذ لهم صرف أوقاتهم فى اجتناء ثمراتها وينتهى بهم الأمر إلى التوغل فى أبواب الصناعة والوصول إلى جميل الاحسان والاتقان فينبغ فيهم النوابغ من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد الكتاب والأدباء .

بل رأينا أرباب الجرائد قد وقفوا هم أيضاً فى باب التحرير عند حد محدود وقعدوا عند نقطة معينة وداروا بأقلامهم فى دائرة واحدة لايخرجون منها ولا يتوسعون فيها وكادوا يصلون فى وحدة التعبير واصطلاح التحرير وتكرير الجمل والألفاظ بعينها فى كل يوم وفى كل باب إلى مصطلح من اللغة يشابه مصطلح لغة الحكومة وإنما يفضله بسلامته من اللحن وحده على وجه عام . وقد صارت تلك الجمل والتراكيب المعينة لطول إعادتها وتكرارها راسخة ثابتة فى جميع

الأذهان فلايشتغل فكر كاتبها فى تسطيرها ولا يحتاج جامع حروفها إلى مراجعتهاولا يمعن قارئها بنظره فى مطالعتها فهى مشتركة فى الأذهان ومتمثلة للأنظار وقد اهتدى بعض أصحاب المطابع إلى سبك كثير من تلك الجمل والمركبات قطعة واحدة فى قوالب من نحاس تخفيفاً للعمل واستراحاً للوقت . وإذا شعر أرباب الجرائد يومابهذا الإخلال والإفساد فى الصناعة قالوا إن لنا فيه عذراً واضحاً وشفيعاً ظاهراً وهو أننا إذا سلكنا طريق التفنن والإبداع فى التحرير والانشاء عسر على القراء فهم ما نكتبه لهم فلا يستريحون إلى المطالعة ولا يستفيدون من المواضيع ، فنحن مضطرون إلى الوقوف عند هذا الحد البسيط ، وفاتهم أن الواجب على المجيدين الذين يضعون أنفسهم أمام القارىء فى موضع الهادى والمرشد ومقام المربى والمعلم أن يرتفعوا بذهن القارىء إلى درجة أذهانهم لا أن ينزلوا بأفكارهم إلى درجة أفكاره .

نقد الدرة اليتيمة

« للشيخ إبراهيم اليازجى »

أهديت إلينا نسخة من هذه الرسالة الأنيقة وهى من تأليف الكاتب البليغ المشهور عبد الله بن المقفع أودعها فنونا من الحكمة وآداب المخالفة والمعاشرة وماينبغى للإنسان أن يتزيّا به من الأخلاق فى مصاحبة الحكام ومخالة الأصدقاء ومدارة الشانئين والحساد ومايسلكه من الطرق لاتقاء الأعداء وأصحاب الطوائل والتسبب إلى النيل منهم وردّ كيدهم إليهم . وكل ذلك مما لقنته التجربة وأعانته عليه الحنكة وأرشده إليه ذكاء قلبه وتوصل إليه بعين النقد والاعتبار وتتبع الأمور بالنظر الصادق والقلب الحافظ بحيث كان لا تمر به واقعة ولايجرى أمامه أمر إلا تمثل فيه عبرةً وانتزع منه حكمةً واستفاد به من سعة عقله وبُعد نظره وغزارة علمه وقوة عارضته وماعرف به من بلاغة الكلام وسحر البيان والحكمة الرائعة، وكيف لا وهو معرب كتاب « كليلة ودمنة » المشهور الذى لو لم يكن له فيه إلا أنه كساه من ديباجة لفظه ووشى بيانه ماكان به نسيج وحده فى التصانيف العربية فضلا عن المعربة ومالايزال به على الدهر جديداً لاتبليه الليالى ولا تغيره الأيام لكفاه دليلا على غزارة فضله ورآسته بين أرباب البلاغة وأمراء الإنشاء .

ولا بأس أن نورد هنا لمعة يسيرة فى المقابلة بين كلامه فى هذه الرسالة وعبارته فى تعريب كليلة ودمنة لا نقصد بذلك غير فائدة النقد ومايترتب عليه من استخراج الحقائق وإرشاد البصائر فإن من تتبع الكتابين بالنظر النقاد وتصفح أسلوبهما بالذهن الشفاف واعتبر بعضهما ببعض فلا جرم أنه يرى كلامه فى كليلة ودمنة أخلص ألفاظاً وأنقى ديباجة وأنصع ألواناً وأشد انسجاماً، تُرى عبارته هناك جوهراً صافياً ونسقاً مطرداً لايتوقف دونها الفهم ولا تُجهد عندها الروية ولا يعترض بيانه فيها لبس ولا إشكال . وإذا اعتبر كلامه فى الدرة وجد كثيراً منه غير خالص من التعقد والاضطراب قلق الأسلوب صعب الاستخراج غير نضيج على الجملة ولا منقح العبارة . بلى إن النسيج فى كلا الكتابين واحد وطبقة الكلام لا تختلف ولكن هناك من الاندماج والسلاسة وانقياد الأغراض واضطراد السبك مالاتجده هنا . ولعل ذلك إذا تتبعت أسبابه وارد من كثرة تداول الأيدى لذاك دون هذا فكان مثله مثل الدينار الذى كثر التعامل به وطال تنقله من يد إلى يد حتى أزالت الأيدى حرشته وعاد أملس ناعماً وذلك أن كتاب كليلة ودمنة قد رزق من الشهرة والاستحسان وإجماع العقول على إيثاره مالم يرزقه كتاب فى بابه وهو إلى اليوم أشهر من نار على علم . ولا تكاد ترى متأدباً إلا وقد أطلع عليه وشغف به وطالما كان موضع ارتياح للملوك والرؤساء والعلماء والأدباء وقد كثرت عنايتهم به وخدموه خدمة لم يخدمها كتاب فما منهم إلا من انتسخه أو استنسخه فضلا عمن نظمه من شعر شعرائهم فكان

الناسخ من أهل الذوق والبصر بالانشاء إذا رأى فيه منقفا أزاله أو أوداً أقامه فلم يغادروا فيه عبارة نافرة ولا لفظة قلقة ولا تركيباً ثقيلا بحيث أنه على تمادى الزمن وتكرر النسخ تم تهذيبه وتنقيحه . الذى يدلك على صحه مانقول أنك لا تكاد تجد نسختين منه تتواطآن على لفظ واحد حتى أن دساسى كان بين يديه سبع نسخ منه كل واحدة مباينة للأخرى . وهذا مما يدل على فضل هذا الكتاب ولا يغض من قدر معربه شيئاً إذ الكلام لايزال كلامه والأسلوب أسلوبه وبمقابلته بالدرة التى نحن فى الكلام عليها يظهر لك مصداق ذلك وترى أن ديباجته مع ما تبدل عليها من النقوش والزخارف لم يتبدل متنها ولا تنكر لونها ولكنها مازالت تعرف لأول لمحة لا تغيب عن معرفة الناقد وتميز العارف .

على أنا لا ننكر أكثر مافى عبارة الدرة من السقم والاضطراب إنما ورد عليها من قبل النساخ وشتان مابين صنيعهم هنا وصنيعهم هناك ولكن كل ناسخ إنما فعل بمقدار علمه فإن الذين نسخوا هذه الرساله لم يعدُوا فى الأكثر حال سائر الناسخين ممن لا علم لهم بما ينسخون . والذين تولوا نسخ كليلة ودمنة كان الكثيرون منهم من فحول أهل الإنشاء والمعرفة بأسرار اللغة وأساليب الكلام فلا عجب أن جاء كلٌّ من نُسُخ الكتابين على ما وصفنا والله أعلم .

وإثباتاً لما ذكر وتنزيهاً لعهد المؤلف عن كثير مما جاء فى هذه الرسالة

ننقل هنا بعض المواضع التى أشرنا إليها مما أفسده تحريف النساخ وما لعله اجتمع إليه من أغلاط الطبع التى هى فاشية فى كتبنا العربية لا يكاد يسلم منها كتاب . والتى هى ولا جرم أعظم ضربة على المصنفين والكتاب فمن ذلك ما جاء فى صفحة ٩ وهى الصفحة الأولى من الرسالة «غير أن الذى نجده فى كتبهم هو المنتحل فى آرائهم والمنتفى من أحاديثهم فإن قوله «المنتحل فى آرائهم» غريب فى هذا الموضع لا يستقيم له معنى ولا هو مما يحتمله سياق الكلام وصوابه «المنتخل» بالخاء المعجمة وهو بمعنى المنتقى الوارد بعد مع تبديل لفظ «فى» بلفظ «من» وهو الوجه السديد الذى لا غبار عليه كما ترى .

ومن ذلك فى صفحة ١٠ «فى تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذهم» فإن هذه المخالفة فى صيغ الضمائر لا وجه لها بل منها ما يفسد المعنى كما ترى والوجه إيرادها جميعاً بلفظ التذكير والإفراد عوداً على العلم .

وفى صفحة ١١ «واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها (أى بالإمارة) فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعته وشهوته» فقوله «من العجب» لا معنى له فى هذا المقام كما ترى ولا ما ذكره بعده مما فيه عجب إذ أكثر الناس على هذا السبيل من إيثار الدعة واللذة . بل الأظهر أن الأصل «من العجز» فأبدله الناسخ سهواً أو عمداً لأنه لم يفهم معنى العجز هنا وهو نقيض الجرأة فانثلم بذلك المعنى وتشوهت صورته كما ترى .

وفى صفحة ١٣ «لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه أو يستخف له شأنٌ» ولا معنى للشأن هنا كما ترى والصواب «شانئٌ».

وفى الصفحة نفسها «واعلم أنك ما شُغلت من رأيك بغير المهمّ أزرى بالمهمّ» شكلت الشين من «شغلت» بالضم فتنكر المعنى واضطربت سلسلة الكلام لأن «ما» صارت على هذا شرطية زمانية والمقصود أن تكون اسماً موصولا يرجع إليه ضمير محذوف بعد شغلت وذلك على حد قوله بعد «وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حتى تريده للحق وما عدلت به عن كرامتك إلى أهل النقص أضر بك فى العجز عن أهل الفضل».

وفى صفحة ١٦ «لا يلومن الوالى على الزلة من ليس بمتهم على الحرص على رضاه» والصواب «فى الحرص».

وفى صفحة ١٨ «لا يعرفنك الولاة بالهوى فى بلدة من البلدان ولا قبيلة من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها إلى حكاية أو مشاهدة فتتهم فى ذلك» وفيه خطأ يعلم الله مكانه وإلا فهذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن قلم المؤلف. ثم إن قوله «فى بلدة من البلدان» فيه تحريف بزيادة التاء على بلدة لأن فعلة لا تجمع على فعلان وإنما البلدان جمع بلد مثل حمل وحملان وجمع البلدة بلاد.

وفى صفحة ٢٠ «لا تحضرن عند الوالى كلاما لا يعنى ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به أو يكون جوابا بالشىء سئلت عنه» وفى هذا

الكلام من الاضطراب والإبهام مالا يخفى ولا تعين حروفه على معرفة أصله بيد أن قوله « جواباً بالشيء » فيه تكرار حرفين وصوابه « جواباً لشيء » .

ومثله فى صفحة ٢٢ « إذا قال لك السائل ما إياك سألت أو قال لك المسألة يعادله بها دونك » .

وفى صفحة ٢٤ « فليست عليه مؤونة فى تبذل يتبذل له عنده وفيه زيادة لام والصواب « يتبذله عنده » .

وفى الصفحة نفسها بعد ما ذكر « أو رأى يستزله منه » والصواب « يستنزله » .

وأمثال ذلك كثيرة فى الكتاب ذاهبة كل مذهب مابين نقص وتبديل وإحالة لبعض الكلم عن مواضعه مما تنكرت به صور التراكيب والتبست وجوه المعانى وذهب ما فيه من الفصاحة والسبك وأنت خبير بأن ما يوصف من الكتب بالسقم والغثاثة أو بالتكلف والتعقيد لا يستلزم أن تكون كل عبارة فيه كذلك ولكن الجملة الواحدة بل اللفظة الواحدة فى الصفحة إذا زلت فى غير منزلها فقد تكون كافية لأن تخدش رونقها وتشوه سائر ماتحيها من المحاسن كالوجه الجميل إذا كان على إحدى عينيه كوكب أو فى إحدى وجنتيه قرحة فقد تنبو العين عن النظر إليه وإن كان سائره سليما لا عيب فيه .

لا جَرَم أن ذلك لما يشعر له بالأسف كل من عانى هذا الشأن (أى شأن الكتابة والتأليف) وتمثل ما بذل المؤلف رحمه الله من الإغراق فى النظر وتحرى من الصحة ، الإحكام فى وضع هذا الكتاب الذى هو نتيجة تجاربه وثمرة عقله ومعرض بيانه ، وكم مثله من السلف ممن لو عادوا اليوم وعاينوا ما صارت إليه مصنفاتهم وما منيت به من صنوف الجدع والصلم لتمنوا أنهم لم يجروا فيها قلماً ولم يعملوا فيها فكراً .

فالله أيها الناس فى أمانات أولئك الأقوام إنكم كنتم عليها أنتم المؤتمنين . وأنهم ليسوا بشاهدى أمركم فارحموهم إنهم كانوا الرحمة أهلا وكانوا من المحسنين . واعلموا أن ما وقع إليكم من تلك الأوراق ليس مما أنبته التراب ، وسقاه السحاب ، وأنضجته الشمس والضباب ؛ ولكنه مما أضنيت فيه الأجساد وأفنيت العيون بالسهاد وصدعت لأجله الرؤوس ، وأذيبت الأدمعة عن صفحات الطروس وأنه لما بيعت به الأعمار فلا تبيعوه بيع الرخيص . وبذلت لأجله الدنيا وهى أحق ما ضن به حريص وإنما فعل أربابه ذلك بغية الذكر حتى إذا فنيت أعيانهم عاشوا بالأثر ، ولكى يعرفوا بصور عقولهم إذا ذهبت الأجساد وبقيت بين أيدينا منهم تلك الصور . تالله ما الأرَضة التى تأكل الكتاب فتمزقه بداد ، ولا النار التى تحرقه فتصيره إلى الرماد . ولا الماء الذى يغرقه فيضرب بينه وبين الوجود بالأسداد بأضر عليه من يحرف عباراته ، ويبدل حسناته ، ويمسخ محاسن آياته ، وإن

ذهاب الكتاب جملة بداهية من نوازل القدر ، وضياع فضل مؤلفه وما يرجو أن يبقى به من جميل الأثر . لأهون على قلبه من أن ينشر بعده بين أيدى الناقدين . وقد حمل عليه من العيوب ما يجعله عرضة للمفندين ، وغرضاً لسهام المنددين .

عصمنا الله مما تزل به أقلامنا إنها الزلة الباقية على كرور الليالى وكفانا شر من يفسد آثارنا من بعدنا إنه كفى العبد ما يتوقع من فساد كيانه ومصيره إلى الانحلال . وحسبنا الله وكيلا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

جوهر الشـــعر

« لإبراهيم بك المويلحى »

تمضى القرون والدهور والناس يقولون الشعر وينشدونه ويسمعونه ويشرحونه وينقدونه ، وهم مذاهب شتى فى تعريفه، فإذا بحث الباحث فى أقوالهم لم يقف منها على تعريف للشعر ترتاح إليه نفسه. والباحثون المدققون ينظرون إلى الشعر وتأثير وقعه فى النفس من وجهين من حيث هو كلام موزون ومن حيث هو حالة من حالات النفس .

أما الوزن فهو تأليف عدة أصوات على نمط تحس بها الأذن صوتاً أثر صوت حتى إذا أنت على الأخير منها تذكرت أولها واستخلصت من هذا التأليف وحدة تلتقطها دفعة واحدة وهو مايسمونه فى عرف الموسيقيين بالتنسيق والانسجام وهو فى تأليف الأصوات لحاسة الأذن يماثل التعادل والتوافق بين أشكال الأجسام لحاسة البصر . فالبيت الموزون ظرف موسيقى فى الشعر كقصبة النافخ فى آلات الطرب .

وأما من حيث هو حالة من حالات النفس فنقول إن فى النفس مسحة علوية هى الجمال والبهاء الباطنى تظهر عليها عند صفاء النفس وخلوها من شوائب الأكدار ولما كان ذلك لا يتنابها إلا حيناً بعد

حين ظنته شيئاً طارئاً عليها من الخارج فلهذا نسب القدماء تجلى ذلك البهاء والجمال إلى أرواح أخرى تمتزج بالنفس. فكان شعراء اليونانيين الرومانيين يسمونها (الموز) (Les Muses) ويفسرونها بآلهة الشعر وطالما كانوا يستدعونها عند إرادة قول الشعر وهذا (هومير)، و(أزيوت) و (سيمونيد) و (سفوكل) و (أوريبيد) و (فرجيل) و (لكريس) و (هوراس) كلهم ينادون تلك الآلهة ويستعينون بها على زعمهم فى مطالع قصائدهم كما تراه فى شعرهم .

ومذهب العرب فى أن لكل شاعر شيطاناً يلقى إليه الشعر مذهب مشهور والشعراء كافة عليه ، قال بعضهم :

إنى ولو كنت صغير السنّ وكان فى العين نبوٌ عنى
فان شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فنّ

وقال حسان بن ثابت شاعر النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا ماترعرع فينا الغلام فما أن يقال له مَن هُوَه
إذا لم يسد قبل شدّ الإزار فذلك فينا الذى لاهُوَه
ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هُوَه

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) واسم شيطان المخبل (عمرو) قال الأعشى :

دعوت خليلى مسحلا ودعوا لهم جهنام جدعاً للهجين المذمم

وقال آخر :

لقد كان جنىُّ الفرزدق قدوة   وما كان فينا مثل فحل المخبل
ولا فى القوافى مثل عمرو وشيخه   ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

وقال أبو النجم :

إنى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وأنشد بعضهم لبعض الرجاز :

إن الشياطين أتونى أربعة   فى غلس الليل وفيهم زوبعة

وقال الفرزدق يصف قصيدة له :

كأنها الذهب العقيان حبرها   لسان أشعر خلق الله شيطانا

فاذا تجلى جماح الروح فى الإنسان وصفت نفسه وكانت ممتلئة من قبل بأطراف المعارف والفنون مطلعة على التواريخ والحوادث والقصص والمحاضرات والنكات وبدائع المشاهد الطبيعية والصناعية وكان لها من التجارب نصيب وافر وكان لها وقوف على مختلف الطباع والأخلاق فاضت منها المعانى البديعة فاذا وضعها فى الألفاظ المحكمة التى لا تطول المعنى ولا تقصر عنه فأفرغها فى قالب الوزن اجتمع حسن المعنى مع انسجام اللفظ فى انسجام الوزن فذلك هو بيت الشعر.

والشعر هو إظهار ماخفى من الحقائق المعنوية وتوضيحها للسامع بجليها عليه بوجوه مختلفة وتجديد ماأخلق تكرار النظر إليه بهاءه من الموجودات كما قال امرؤ القيس فى وصف الأسنة التى يراها الإنسان

كل ساعة ، ومسنونة زرق كأنياب أغوال ، فكساها كساء قشيباً من من التأثير وجعل لبهائها فى النفس سلطاناً جديداً . ولو خيرت الحقيقة أن تشرف على الناس من أجمل مكان لما اختارت إلا أن تشرف عليهم من بيت الشعر .

الحسن يظهر فى شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وعلى ذلك فالشعر موجود فى غريزة كل إنسان وكل إنسان شاعر وليس كل ناظم شاعراً ويوجد الشعر فى المنثور كما يوجد فى المنظوم إذا نشأ عنه تأثير فى النفس ومثل ذلك ماتراه من الشعر فى كلام البدوى وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبته فقال (إنى لأرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس) وكقول الآخر (مازلت أريها القمر حتى إذا غاب أرتنيه) وكما تراه فى قصة محمود الغزنوى وقد فتح بلداً فجاء أهلها يطلبون منه أن لا يكسر أصنامهم وعرضوا عليه مالا عظيما فاستشار بعض خاصته فأشاروا عليه أن يبيعها منهم إلا واحدا قال له : (أتريد أن يقال بعدك إن إبراهيم عليه السلام كاسر الأصنام ومحمود بائع الأصنام) ففعلت هذه الكلمة فى نفسه فعلا رفض به ما كان محتاجاً إليه من تلك الكنوز التى عرضوها عليه .

ومن الموزون ما ليس بشعر كما تراه فى كثير من القصائد التى يقيد فيها أربابها ألفاظاً بقيود الوزن فيضعون ذلك الظرف الموسيقى ما يذهب بحسن انسجامه كما يتوضح ذلك جلياً فى أشعار المتون التى

ربطوا بها قواعد العلوم بالوزن ليسهل حفظها وسواها من نظم الشعراء الذين لم يكمل الاستعداد فى نفوسهم لسلطان الشعر .

وصف نهج البلاغة

للشيخ محمد عبده (١)

أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفة بلا تعمل . أصبتُهُ على تغير حال ، وتبلبل بال ، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال ، فحسبته تسلية ، وحيلة للتخلية ، فتصفحت بعض صفحاته وتأملتُ جملا من عباراته . من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شبت ، وغارات شنت ؛ وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة . وأن للأوهام

---

(١) الشيخ محمد عبده : هو — رحمه الله ! — أكتب العلماء وأعلم الكتاب فى هذا العصر بل لا أعرف فقها بعد انقضاء دولة الأئمة المجتهدين فى صدر الإسلام أقدر منه على الكتابة الأدبية ، وله فى كتابته مزية العلو والمتانة وسعة المادة اللغوية والاقتدار على الحجة التى لا تدفع .

عرامة(١) وللريب دعارة(٢). وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة، في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج(٣) والقويم الأملج(٤) وتملج(٥) المهج، برائع الحجج، وتفل دعارة الوساوس. وتصيب مقاتل الخوانس(٦). فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر، ومرج الشك في محمود، وهرج الريب في ركود، وأن مدبر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية، في حلل من العبارات الزاهية. تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحي إليها رشادها وتقوم منها منآدها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جود الفضل والكمال، وطورا كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة. وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النمور. ومخالب النسور، وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فجلبت القلوب عن هواها. وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الأهواء وباطل

---

(١) العرامة: الشراسة. (٢) الدعارة: سوء الخلق.
(٣) الصفيح: السيف، والأبلج: اللامع البياض.
(٤) الرمح الأملج: الأسمر. (٥) لتملج: لتمتص.
(٦) الخوانس: خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء.

الآراء ، وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانيا ، لا يشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلهى . واتصل بالروح الإنسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس . بعد استخلاصه من شوائب التلبيس . وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة . يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب . ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة . وهديهم طريق الكياسة . ويرتفع بهم إلى منصات الرآسة . ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير .

باب الأدب والحكمة

قسم المنظوم

الكرم

« لحاتم الطائى »[1]

أماوى إن المال غادٍ ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوىّ إنى لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حلّ فى مالنا النذرُ
أماوىّ إما مانع فمبيّن ... وإما عطاء لا ينهنهُه الزجرُ
أماوىّ إن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا ماء لدىّ ولا خمرُ
ترىّ أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفرُ

الإيثار

« لحاتم الطائى أيضا »

وما أنا بالساعى بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

---

(١) حاتم الطائى : هو أحد شعراء الجاهلية المجيدين ، وأكثر شعره فى تأييد ذلك الخلق العظيم خلق الجود والإحسان الذى كان متجملا به .

وما أنا بالطاوى حقيبة رحلها ... لأبعثها خفقاً(١) وأترك صاحبي
إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب(٢) فعاقب

ذم الغيبة

«لكعب بن زهير»(٣)

مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

ذم الغيرة

«لبعض الشعراء المتقدمين»

ما أحسن الغيرة فى حينها ... وأقبح الغيرة فى كل حين
من لم يزل متهماً عرسه ... مناصباً فيها لريب الظنون

---

(١) يقال : خف فى سيره خفاً ، إذا قل ثقله .

(٢) يقال : عاقب فلان فلاناً فى الراحلة ، إذا ركب هو مرة وركب الآخر أخرى .

(٣) كعب بن زهير : هو أحد الشعراء المخضرمين ، وصاحب اللامية المشهورة التى مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى إحدى المشوبات ، وقد ورث الشعر عن أبيه زهير بن أبى سلمى أحد أصحاب المعلقات .

أو شك أن يغريها بالذى   يخاف أن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها   منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطلع منك على ريبة   فيتبع المقرون حبل القرين(١)

فضل الأناة

« للقطامى »(٢)

ليس الجديد مقيما فى بشاشته   إلا قليلا ولا ذو خلة يصل
والعيش لا عيش إلا ما تقر به   عين ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل(٣)

---

(١) جمعت هذه الأبيات القليلة جميع ما تفرق فى كتابات الكتاب الاجتماعيين الذين ينشئون المقالات ويدونون الكتب فى هذا المعنى الصغير وهو أن السبيل الوحيد إلى عفة المرأة واستقامتها عفة زوجها واستقامته ، وأن سوء الظن بها أكبر باعث لها على الوقوع فيما اتهمت به .

(٢) القطامى : هو عمرو بن تيم التغلبى ، كان نصرانياً معاصراً للأخطل وله شعر يعد من الطبقة الأولى ، وهو أحد أصحاب المشوبات ومشوبته مطلعها :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل   وإن بليت وإن طالت بك الطول

(٣) يتضمن هذا البيت أصدق حقيقة من حقائق روح الاجتماع ، وهى أن الناس يجرون فى الحكم على الرجال على أحكام المصادفات والاتفاقات ، فمن ساعده الحظ فنجح فهو عندهم أعقل الناس وإن كان أجهلهم ، ومن هفا فى حياته هفوة نخاب فى عمله فهو عندهم أجهل الناس وإن كان أعقلهم .

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

السعادة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود
إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه شديد[1]
وكائن رأينا من غنى مذمم وصعلوك قوم مات وهو حميد
وإن امرءاً يمسى ويصبح سالما من الناس إلا ماجنى لسعيد

كرم الضيافة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله
ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

---

(١) يشير فى هذا البيت إلى قاعدة من قواعد التربية وهى أن التربية على الأخلاق الكريمة إن لم تكن فى زمن الصغر فقلما تفيد بعد ذلك .

التجلد

« لبعض الشعراء المتقدمين »

قد عشت فى الناس أطوارا على طرق
شتى وقاسيت فيها اللين والفظعا
لا يملأ الهول صدرى قبل موقعه
ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

القناعة

« للعتابى »[1]

تلوم على ترك الغنى باهلية
زوى[2] الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الثرى
مقلدة أعناقها بالقلائد

---

(١) العتابى (ت ٢٠٨ هـ) : هو كلثوم بن عمرو ، أحد مشهورى الشعراء فى عصر الرشيد العباسى وأولاده ، وشعره لا يرتقى إلى الجيد ، ولاينحط إلى الردىء .

(٢) زوى الشىء عنه : نحاه وصرفه .

أسرك أنى نلت ما نال جعفر
من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصنى(١)
مغصهما بالمرهفات البوادر
دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة
ولم أتجشم هول تلك الموارد
رأيت رفيعات الأمور مشوبة
بمستودعات فى بطون الأساود(٢)

مكارم الأخلاق

« لبعض الشعراء المتقدمين »

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وفى جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحماً مدفقة ثردا(٣)
وفى فرس نهد عتيق(٤) جعلته حجابا لبيتى ثم أخدمته عبدا

---

(١) أغصه بكذا : جعله يغص به .
(٢) الأساود : نوع من الحيات .
(٣) الجفنة : القصعة ؛ والثرد : جمع ثريد .
(٤) الفرس النهد : القوى ؛ والعتيق : الكريم .

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا (١)
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالى إن تتابع لى غنى ... وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا (٢)
وإنى لعبد الضيف مادام نازلا ... وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

الصفح والإغضاء

« للشريف الرضى »(٣)

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه(٤) ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

---

(١) يريد : أنهم إذا أرادوا به شراً أراد بهم خيراً .
(٢) الرفد : العطاء .
(٣) الشريف الرضى (ت ٤٠٦ هـ) : هو أحد شعراء الطبقة الأولى ، وله فى شعره مذهب خاص به لم يتبع فيه أحداً ، قد جمع فيه بين البداوة والحضارة والجلال والجمال ، وإن صح أن له فى كتاب نهج البلاغة شيئاً كثيراً كان أكتب الكتاب كما أنه أشعر الشعراء .
(٤) زاغ : مال ، وكعوب الرمح : عقده .

تقبلت منه ظاهرا متبلجاً
وأدج دونى باطناً متجهما[1]
ولو أنى كشفته عن ضميره
أقمت على ما بيننا اليوم ماتما
دع المرء مطويا على ما ذممته
ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته
على مضض لم تبق لحماً ولا دما

أدب الحديث

«لأبى تمام»

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم ردّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به[2]

---

(١) تجهمه : استقبله بوجه كريه .
(٢) فى هذا البيت أدب رقيق من آداب العشرة ، قل من الناس من يستطيع الصبر عليه ، ولا أعرف فى الرياء نوعاً مستحسنا غير هذا النوع .

الرياء

«لابن الرومى»

اعلم بأن الناس من طينة يصدق فى الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذاً لفاح الحمأ اللازب(١)

العفـة

«لليلى الأخيلية»(٢)

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس إليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل(٣)

---

(١) الحمأ : الطين المنتن ، واللازب : اللاصق المتداخل .

(٢) ليلى الأخيلية (ت ٨٠ هـ) : لاشك أنها والخنساء أشعر الشواعر ولليلى من الشعر فى المديح والغزل ما أشبه شعر الرجال أحياناً .

(٣) لا أعرف كناية أفضل من هذه الكناية فى قولها وذى حاجة والبيت الثانى أفضل مقال يؤتى به دليلا على شرف أخلاق المرأة العربية ومعرفتها بالأصل الأول من أصول حقوق الزوجية ، وإنها إن لم تنفر من الفحشاء عفة فإنها تجتنبها وفاء .

القناعة

« لابن الرومى »

رحباً بالكفاف يأتى عفياً(١) وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرئ يشمر فى الجمع لعيش مشمر للفناء
يحسب الحظ كله فى يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس فى آجل النعيم له حظ وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقى وإن كا ن يرى أنه من السعداء
حسب ذى إربة(٢) ورأى جلى نظرت عينه بلا غلواء(٣)
صحة الجسم والجوارح والعر ض وإحراز مسكة الحوباء(٤)

القناعة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجرا

---

(١) عفياً : أى عفوا (٢) الإربة : الدهاء والحيلة .
(٣) الغلواء : الغلو (٤) المسكة : ما يمسك النفس من غذاء وغيره .
والحوباء النفس .

إذا ما أنت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالا لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة   فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

حب البنين

« لبعض الشعراء المتقدمين »

لولا أميمه لم أجزع من العدم   ولم أُجب فى الليالى حندس الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى   أن اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها   فيهتكَ الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً   والموت أكرم نزال على الحرم

كتمان السر

« لمسكين الدارمى »(١)

وفتيان صدق لستُ مطلعَ بعضهم   على سر بعض غير أنى جماعها(٢)

---

(١) مسكين الدارمى (ت ٩٠ هـ) : كان شاعراً خلا مجيداً وكان شريفاً عالى الهمة يتشيع لمعاوية وينصره وهو أول من سهل عليه مفاتحة الناس ببيعة ولده يزيد من بعده إذ قال :

إذا المنبر الغربى خلاه ربه   فإن أمير المؤمنين يزيد

(٢) يقال : الخمر جماع الإثم ، لأنها جامعة لكل أصنافه .

لكل امرىء شعب من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها (١)
يظلون شتى فى البلاد وسرهم إلى صخرة أعيى الرجال انصداعها

الشـورى

« لبشار بن برد »

إذا بلغ الرأى النصيحة فاستعن بعزم نصيح أو بتأييد حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة مكان الخوافى نافع للقوادم (١)
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوماً فإن الحزم ليس بنائم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وحارب إذا لم تعطَ إلا ظلامةً شبا الحرب خير من قبول المظالم
وأدن على القرْبى المقرب نفسَهُ ولا تشهد الشورى أمرءاً غير كاتم
فإنك لا تستطرد الهم بالمنى ولا تبلغ العليا بغير المكارم
إذا كنت فرداً هرك (٣) القوم مقبلا
وإن كنت أدنى لم تفز بالغنائم

---

(١) اطلع الأمر : علمه (٢) غضاضة : مذلة ، والخوافى : صغار الريش فى مؤخر الجناح ، والقوادم : كباره فى مقدمه. يريد أن المستشير لا يحمل به أن يزدرى برأى لمشير فرب صغير يحتاج إليه كما تحتاج القوادم إلى الخوافى .
(٣) يقال : هره الكلب : إذا نبحه .

وماقرَع الأقوام مثلُ مشيع(١) أريب وجلى العمى مثل عالم

المغفرة

« لأبي العتاهية »(٢)

إنى شكرتُ لظالمى ظلمى وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلى يداً لما أبان بجهله حلمى
رجعت إساءته عليه وإحسانى فعاد مضاعف الجرمِ
وغدوت ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الظلم والإثم
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسىء إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه حتى بكيت له من الظلم

إكرام النفس

« لابن مطير »(٣)

ومن يتبع مايعجب النفس لم يزل مطيعاً لها فى فعل شىء يضيرها

---

(١) المشيع : الشجاع .

(٢) أبو العتاهية : (ت ٢١١ هـ) هو أبو إسحق إسماعيل بن القاسم شاعر مطبوع رقيق مجيد فى الزهد والمديح والحكمة ، يعد فى طبقة بشار وأبى نواس ولا أحسبه يبلغ هذا المبلغ كله .

(٣) ابن مطير : (ت ١٦٩ هـ) هو الحسين بن مطير من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وشعره على قنته غاية فى المتانة والعذوبة ، وله فى النسيب أرق الشعر وأسلسه .

فنفسك أكرم من أمور كثيرة فمالك نفس بعدها تستعيرها

السعادة النفسية

« لبشار »

وماخاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولاضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

الحرية

« لأبى تمام »

سأصرف وجهى عن بلاد غدابها لسانى معقولا وقلبى مقفلا
وإن صريح الحزم والرأى لامرىء إذا بلغته الشمس أن يتحولا

عاقبة الجهالة

« لأبى نواس »(١)

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت(٢) سرح اللهو حيث أساموا

---

(١) أبو نواس: (ت١٦٨هـ) هو الحسن بن هانىء الحكمى سيد المحدثين والمبتكر الأول لحضارة الشعر ومدنيته وصاحب المعانى الغريبة التى لم يسبق اليها فى الأثواب الرقيقة التى لا يجارى فيها .

(٢) سام ناقته : أرعاها .

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

الصداقة الكاذبة

« لأبى تمام »

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله فى هذا السواد الأعظم
ليس الصديق ممن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطن متجهم

الثقـــــة

« لبعض الشعراء المحدثين »

فى انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

مكارم الأخلاق

« للشريف الرضى »

يصول علىّ الجاهلون وأعتدى ويعجلم فىّ القائلون وأعرب
يرون احتمالى غصةً ويزيدهم لواعج ضغن أننى لست أغضب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتى ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر القوارص شيمتى كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجا إذا نال منى العاضه(١) المتأوب

---

(١) العاضه : الكاذب .

ولست براض أن تمس عزائمى فضالات ما يعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب حياتى بحفظها زمانى وصرف الدهر نعم المؤدب

القناعة

« لأبى تمام »

من زاحف الأيام ثم عبا(١) لها غير القناعة لم يزل مغلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه فى الأرض ما كان القليل قليلا

الصديق

« لأبى العتاهية »

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته صفالى ولا إن صرت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

كلمات فى الحكمة

« للمعرّى »(٢)

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقة(٣) فتحملَ شيئاً من همومى وأحزانى

---

(١) عبا : أعد وهيأ .

(٢) المعرى : (ت ٤٤٩هـ) هو أحمد بن سليمان الشاعر الفيلسوف المشهور غلب علمه على شعره فلم يجئ مطبوعا إلا نادراً على أنه أقدر من نظم الحكمة فى الشعر وقل أن يجيد ذلك أحد.

(٣) طلقة : حلالا .

وهيهات لو حلت لما كنت شارباً مخففة فى الحلم (١) كفة ميزانى

الملك أجير الرعية

ملـ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

رياء الوعاظ

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ماعنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

لا علاج لشرور العالم

إذا كان علم النفس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

سلطان العقل

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنا إلى الرؤساء

رياء العبّاد

لعل أناساً فى المحاريب خوفوا بآى، كناس فى المشارب أطربوا

---

(١) الحلم هنا : العقل .

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها　　فتاركها عمداً إلى الله أقرب

شرور العالم

يحسن مرآى لبني آدم　　وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم برٌّ ولا ناسك　　إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة　　لا تظلم الناس ولا تكذب

الموت طهارة من الحياة

أيا جسد المرء ماذا دهاك　　وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً إذا ما رجعت　　إلى الأصل كالمطر الصيب

قسمة الأرزاق

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته　　فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يُرزق المجدود أقوات أمة　　ويحرم قوتاً واحدٌ هو أحوج

ذم البطالة

ويعجبني دأب الذين ترهبوا　　سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
فما حبس النفس المسيحُ تعبداً　　ولكن مشى في الأرض مشية سائح

الرفق بالحيوان

لقد رابني مضدى الفقير بجهله　　على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فإن وَنى　　أحال على ذى فترة يتجلد

أين الحقيقة

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة

أي المعاني بأهل الأرض مقصود

لم تعطنا العلم أخبار يجىء بها
نقل ولا كوكب فى الأرض مرصود
وابيض ما اخضر من نبت الزمان بنا
وكل زرع إذا ما هاج محصود

حقيقة الإيمان

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد

خرافات النساء

سألت منجمها عن الطفل الذى فى المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مئة ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها فى شهره

راحة الموت

قدم الفتى ومضى بغير تئيـة كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة فى دهره

العفـــة

أحسن جوار للفتـاة وعدهـا أخت السماك على دنو الدار
كتجاور العينين لن تتلاقيا وحجاز بينهما قصير جدار

بقـاء المادة

مضى الأنام فلولا علم حالهم لقلت قول زهير أية مذهب سلكوا
فى الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا
منه فكيف اعتقادى أنهم هلكوا

الصبر على الأذى

إذا قال فيك الناس مالا تحبه فصبراً يفيء ود العدو إليكا
وقد نطقوا ميناً على الله وافتروا فما لهم لا يفترون عليكا

الدين المعاملة

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماسك

تأويل الفقهاء

جهلت أقاضى الرى أكثر مأثما بما نصه أم شاعر يتغزل
فكم من فقيه خابط فى ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل
فما لعذاب فوقكم لا يعمكم وما بال أرض تحتكم لا تزلزل

تعليم المرأة

إن نشأت بنتك فى نعمة فألزمها البيت والمغزلا
ذلك خير من شوار لها ومن عطايا والد أجزلا

الرفق بالعميان

عميانكم قرأت على أجداثكم وأتوا لكم بالبر من آتاكم
أحياؤكم بخلت عليهم بالندى فبغوه بالفرقان من موتاكم

مساعدة الضعفاء

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه لتهديه وامنن بإفهامك الصما
ولا تك ممن قرب العبد شارخاً(١) وضيعه إذ صار من كبرها (٢)

---

(١) الشارخ: الفتى فى أول صباه (٢) الهم: الشيخ الفانى

حكم العادة

إذا ألف الشيء استهان به الفتى فلم يره بؤسى يُعد ولا نُعمى
كإنفاقه من عمره ومساغه من الريق عذباً لا يحسن له طعما

الجرائم

لا تحدث القتل فى كف ولا قدم ولا تعرض مدى الدنيا لسفك دم
وخل من صور الأشباح مقتدراً يحلها فهو وب الدهر والقدم

خرافة الرمالين

أما لأمير هـذا المصر عقلٌ يقيم عن الطريق ذوى النجوم
فكم قطعوا السبيل على ضعيف ولم يعفوا النساء من الهجوم
إذا افتكر اللبيب رأى أموراً ترد الضاحكات إلى الوجوم

ذم الشراب

يقول الناس إن الخمر تودى بما فى الصدر منهم قديم
ولولا أنها باللب تودى لكنت أخا المدامة والنديم

تبرج النساء

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضلَ من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها
يفوح ريا الطبيب من أمامها
زائرة المسجد فى إلمامها
تأثم والخيبة فى اتمامها

ذم التناسل

يا أمة فى التراب هامدة تجاوز الله عن سرائركم
ياليتكم لم تطوا إماءكم ولا دنوتم إلى حرائركم
ان استرحتم مما تكابده فنحن من بعد فى جرائركم

حكمة الزكاة

ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب فكيف تعجز أقواماً مساكينا
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الاعدام شاكينا

الحلم

« لبعض الشعراء المتقدمين »

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

ألم الموت

« للمتنبى »

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ فس أن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

حب الحياة

« للمتنبى أيضاً »

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد ... إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

الشجاعة

« للمتنبى أيضاً »

إذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الأنـ ... ـفس سهل فيها إذا هو كانا

الأشرار حرب الأخيار

« لبعض الشعراء المتقدمين »

لقد زادنى حباً لنفسى إننى ... بغيض إلى كل امرىء غير طائل
إذا ما رآنى قطع الطرف دونه ... ودونى فعلَ العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها ... من الضيق فى عينيه كفة حابل
وإنى شقى باللئام ولا ترى ... شقياً بهم إلا كريم الشمائل

تحيّن الفرصة

« لأبى العتاهية »

لم من مؤخر غاية قد أمكنت لغد وليس غد له بمواتِ
حتى إذا فاتت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حسرات
تأتى المكاره حين تأتى جملة وأرى السرور يجىء فى الفلتات

الإباء

« لبعض الشعراء المحدثين »

لا تشكون لعاذل أو عاذر حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين غضاضة فى النفس مثل شماتة الأعداء

الحب المعتدل

للشريف الرضى

أحبك بالطبع البعيد من الجفا وأقلاك بالعقل البرىء من الخبل
فأنت صديقى إن ذهبتُ إلى الهوى
وأنت عدوى إن رجعتُ إلى العقل

عزة النفس

« لبعض الشعراء المتقدمين »

تكلفنى إذلال نفسى لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول سل المعروف يحيى بن أكثم فقلت سليه رب يحيى بن أكثما

كلمات

« لمحمود باشا سامى البارودى »(١)

دخائل القلوب

تحملت خوف المن ّ كل رزيئة　　وحمل رزايا الدهر أحلى من المن
وعاشرتُ أخدانا فلما بلوتهم　　تمنيت أن أبقى وحيداً بلا خِدنِ
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت　　عليه من البغضاء عاش على ضغن
يرى بصرى من لا أود لقاءه　　وتسمع أذنى ماتعاف من اللحن

تقلبات الأيام

ولقد تبينتُ الأمور بغيرها　　وأتى عليّ النقض والإبرام
فإذا السكون تحرك وإذا الخمو　　د تلهب وإذ السكوت كلام
وإذا الحياة ولا حياة منية　　تحيى بها الأجساد وهى رِمام
هذا يحل وذاك يرحل كارهاً　　عنه فصلحٌ تارةً وخصام
فالنور لو بينت أمرك ظلمة　　والبدء لو فكرت فيه ختام

جريان المقادير

يود الفتى مالا يكون طاعة　　ولم يدر أن الدهر بالناس قلَّب

---

(١) البارودى : هو شيخ شعراء هذا العصر وأول من أحيا سنة الشعر العربى بعد مادارت الأيام دورتها .

ولو علم الإنسان مافيه نفعه لأبصر ما يأتى وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجرى بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب

شرور العالم

« لأحمد شوقى بك »(١)

أناس كما تدرى ودنيا بحالها ودهر رخى تارةً وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد تشابَه فيها أول وأخيرُ
تمر تباعاً فى الحياة كأنها ملاعبُ لا تُرخى لهن ستورُ
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى وغش وإفك فى الحياة وزورُ
وقام مقام الفرد فى كل أمة على الحكم جم يستبد غفيرُ
وحُوِّر قول الناس مولى وعبده إلى قولهم مستأجر وأجيرُ

كلمات

« لإسماعيل باشا صبرى(٢) »

الموت والحياة

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ض تنم آمنا من الأوصاب

---

(١) شوقى : أشهر شعراء العربية فى العصر الحاضر وأقدرهم على التصورات البديعة والخيالات الشعرية العالية ، وهو يشبه المتنبى فى أنه يرتقى حتى لا يساويه أحد وقد يصل أحيانا إلى منزلة لا يرضى بها من هو فى منزلته .

(٢) إسماعيل باشا صبرى : أحد شعراء الطبقة الأولى فى هذا العصر ويمتاز بجمال مقطعاته وعذوبة أسلوبه إلى ما لا يجاريه فيه مجار وحسن تصوراته وخلابة خيالاته وهو أجود ما يكون إذا نطق بكلمة الحكمة أو أرسل بيت النسيب

تلك أم أحنى عليك من الأ م التى خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماحٍ منك إلا ما تشتكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنـــوان ما نُص فى غضون الكتاب
وحياة المرء اضطراب فان ما ت فقد عاد سالماً للتراب

راحة الموت

ياموت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

الوفاء

إذا خاننى خل قديم وعقنى وفوقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم

سجن الفضيلة

« لحافظ إبراهيم »

نعمنَ بنفسى وأشقينى فياليتهن ويالیـــتنى
خلال نزلنَ بخصب النفو س فرويتهن واظمأننى
تعودن منى إباء الكريـــم وصبر الحليم وتيه الغنى
وعودتهن نزال الخطو ب فما ينثنين وما أنثنى
إذا ما لهوت بليل الشبا ب أهبنَ بعزمى فنبهننى
فما زلت أمرح فى قدهن ويمرحن منى بروض جنى
إلى أن تولى زمان الشبا ب وأوشك عودى أن ينحنى
فيانفس إن كنتِ لاتوقنـ ين بمعقود أمرك فاستيقنى
فهذى الفضيلة سجن النفو س وأنت الجديرة أن تسجنى

قسم المنثور

وصايا حكمية

«من أعرابية لولدها»

أى بنى إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين . وإياك والتعرضَ للعيوب فتُتخذَ غرضاً وخليق أن لا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يَهِيَ(١) ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ولا تهزز لئيما فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها . ومثِّلْ لنفسك مثال ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فان المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله كان صديقه عنه على مثل الريح فى تصرفها. والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها(٢).

---

(١) وهى : ضعف (٢) الربطة : كل ثوب رقيق يشبه الملحفة ، والسربال : القميص .

أدب الزوجة

« لأعرابية توصى ابنتها ليلة البناء بها »

أىْ بنيةُ إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ولكنها تذكرة الغافل ، ومعونة العاقل . أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت . إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً واحفظى له خصالا عشرا . أما الأولى والثانية ، فاصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقدلموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة . وأما السابعة والثامنة ، فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير . وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سراً ، فإنك إن خالفتيه أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا . فان الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير وكونى أشد الناس له إعظاماً ، يكن أشدهم لك إكراماً ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك .

كلمات فى الأخلاق

« لعلى بن أبى طالب »(١)

علو الهمة

أكرِم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خيرُ خير لا يُنال إلا بشر ويسرٍ لاينال إلا بعسر وإياك أن توجف بك(٢) مطايا الطمع فتوردَك مناهل الهلكة وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فانك مدرك قسمك وآخذ سهمك وإن اليسير من الله سبحانه وتعالى أكرم وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كل من عنده.

حسن العشرة

احملْ نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة وعند صدوده على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو وعند شدته على اللين وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه

---

(١) على بن أبى طالب :(ت ٤١٢ هـ)هو أفصح قرشى إذا خطب أو كتب واصدقه وإخلاصه أثر فى تأثير كتاباته عامة وزهدياته خاصة .

(٢) وجف البعير : عدا وأسرع .

ذو نعمة عليك وإياك أن تضع ذلك فى غير موضعه أو أن تصنعه مع غير أهله .

الاعتدال

أعجبُ ما فى الإنسان قلبه وله موادٌ من الحكمة وأضداد من خلافها فان سنح له الرجاء أذله الطمع وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ وإن سعد بالرضا نسى التحفظ وإن أناه الخوف شغله الحذر وإن اتسع له الأمن استلبتْه الغرة(١) وإن أصابتهُ مصيبة فضحه الجزع وإن استفاد مالا أطغاه الغنى وإن عضته فاقة بلغ به البلا وإن جَهد به الجوع قعد به الضعف وإن أفرط فى الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر وكل إفراط له قاتل .

---

(١) الغرة : الغفلة .

أدب الحاشية

« لأحد الأمراء العباسيين »

فى وصيته إلى أحد رجال خاصته

ياعبد الله ، كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام فإنهم قالوا إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم . واعلم أن أصعبَ الملوك معاملةً الجبار الفطن المتفقد فإن ابتليت بصحبته فاحترس وإن عوفيت فاشكر الله على السلامة فإن السلامة أصل كل نعمةَ ؛ لاتساعدنى على ما يَقبُح بى ولا تردن على خطأ فى مجلس ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى وكلمنى بقدر ما أستنطقكواجعل بدل التقريظ لى صواب الاستماع منى . واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول وإذا سمعتنى أتحدَّث فلا يفوتنكَ منه شىء وأرنى فهمك إياه فى طرفك ووجهك فما ظنكَ بالملك وقد أحلك محل المعجبِ بما يُسمعكَ إياه وأحللته بمحل من لا تسمعهُ منه ولا تستدع الزيادة من كلامى بما تُظهر من استحسان مايكون منى فمن أسوأ حالا ممن يستلذ كلام الملوك بالباطل .

كلمات فى الآداب

« لابن المقفع » (١)

دعوى العلم

استحى الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرحاً أو معرضاً وإن استطلت على الأكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء فإن آنست من نفسك فضلا فتحرج أن تذكره أو تبديه . واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك فى قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل . واعلم أنك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف . ولا يخفين عليك أن حرص الرجل على إظهار ما عنده وقلة وقاره فى ذلك باب من البخل واللؤم وأن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم .

أصول الأخلاق

ياطالب الأدب اعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس

---

(١) ابن المقفع : هو عبدالله بن المقفع أكتب كتاب العربية فى الأدب والحكمة ، ومذهبه فى الكتابة أعدل المذاهب وأقومها لطلاوته وسلاسته وبعده عن الأسجاع والتكاليف، ولا يوجد له نظير فى طريقته إلا الجاحظ وعبد الحميد وسهل بن هارون وقليل من أمثالهم .

يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دَركهم دركا ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل ، فأصل الأمرين فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدى الفريضة فالزم ذلك لزومَ من لاغناء به عند طرفة عين ومن يعلم أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه فى الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل . وأصل الأمر فى إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافاً وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك فهو أفضل ، وأصل الأمر فى البأس ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ثم إن قدرت أن تكون أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل . وأصل الأمر فى الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لاحق له فافعل فهو أفضل . وأصل الأمر فى الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ ثم إن قدرت على بارع الصواب فهو أفضل . وأصل الأمر فى المعيشة ألا تنى عن طلب الجلال وأن تحسن التقدير لما تفيد (١) وما تنفق ولا يضرنك من ذلك سعة تكون فيها فإن أعظم الناس فى الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير . والملوك

---

(١) تفيد : أى تستفيد .

إلى التقدير . والملوك أحوج إلى التقدير من السوقة لأن السوقة قد تعيش بغير مال والملوك لاقوام لهم إلا بالمال ثم إن قدرت على الرفق واللطف فى الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل .

شرف المروءة

لا يعجبك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطة أوشك أمور الدنيا زوالا ولا يعجبنك إكرامهم إياك للنسب فإن الأنساب أقل مناقب الخير غناء عن أهلها فى الدين والدنيا ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك فإن المروءة لاتزايلك فى الدنيا والدين لايزايلك فى الآخرة .

سياسة الاقتصاد

اعلم أن رأيك لايتسع لكل شىء ففرغه للمهم وإن مالك لا يفى الناس كلهم فاختص به ذوى الحقوق وإن كرامتك لا تطيق العامة فتوج بها أهل الفضائل وإن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيها وإنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما فأحسن قسمتهما بين دعتك وعملك واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك فى العجز عن أهل الفضل وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك فى الحاجة .

الشورى

لا يقذفن فى روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى غيرك فانك لست تريد الرأى للافتخار به ولكن تريده للانتفاع به ولو أنك مع ذلك أردت الذكر كان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل أن يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة ذوى الرأى .

رضى الناس

إنك إن تلتمس رضاء جميع الناس تلتمس مالا يدرك وكيف يتفق لك رأى المختلفين وما حاجتك إلى رضاء من رضاه الجور وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة فعليك بالتماس رضاء الأخيار منهم وذوى العقل فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

الصداقة

ابذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك وللعامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.

الصبر

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وجليس السوء فان ذلك مالا يكاد يخطئك فان الصبر صبران صبر الرجل على ما يكره وصبره عما يجب فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرا . واعلم أن اللئام أصبر أجساداً والكرام أصبر نفوساً وليس

الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وقاحاً أو رجله قوية على المشى أو يده قوية على العمل فانما هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلوباً وللأمور محتملا وفى الضر متجملا ولنفسه عند الرأى والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثراً وللهوى تاركاً وللمشقة التى يرجو عاقبتها مستخفا وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً .

سكر الرضى والغضب

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ثم يبلغ به الرضى إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر (١) لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ويعطى من لم يكن يعطيه ويكره من لاحق له ولا مودة فاحذر هذا الباب كله فانه ليس أحدأسوأ حالا من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضائهم فانه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله أو يتخبطه المس من يعاقب فى غضبه غير من أغضبه ويحبو عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً فى صفته .

---

(١) الخطر : المنزلة والقدر .

الاحتمال

اعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه وإن سفه السفيه سيطلع لك منه فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فاجتنب أن تحتذى مثاله فان كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك معارضته فاما أن تذمه وتمتثله فليس ذلك لك .

الرفعة فى التواضع

إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك فى كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل فان رفع الناس إياك فوق المنزلة التى تحط إليها نفسك وتقريبهم إياك فى المجلس الذى تباعدت عنه وتعظيمهم من أمرك مالم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك مالم تزين هو الجمال

الحسد

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً فان الحسد خاق لئيم ومن لؤمه أن يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلصاء فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك وأن غنمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقتبس من علمه وأفضل منك فى القوة فيدفع عنك بقوته وأفضل منك فى المال فتفيد (١) من ماله

---

(١) تفيد : أى تستفيد .

وأفضل منك فى الجاه فتصيب حاجتك بجاهه وأفضل منك فى الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه .

الصـــدق

ليعرف إخوانك والعامة أنك إن استطعت أن تكون إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل فعلت فان فضل القول على الفعل عار وهجنه وفضل الفعل على القول زينة .

فضول النظر

اعلم أن من أوقع الأمور فى الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار الغرامَ بالنساء ومن البلاء على المغرم بهن أنه لاينفك يأجم ماعنده وتطمح عيناه إلى ماليس عنده منهن وإنما النساء أشباه وما يرى فى العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة بل كثير ممن يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه وإنما المترغب عما فى رحله منهن إلى مافى رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى مافى بيوت الناس بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام وما فى رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلا وتفاوتاً مما فى رحالهم من النساء . ومن العجب أن الرجل الذى لا بأس فى لبه يرى المرأة من بعيد متلففة فى ثيابها فيصور لها فى قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة

فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لو لم يبق فى الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ماذاق وهذا هو الحمق والشقاء .

الثقة بالأصدقاء

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك فإنما هو أحد رجلين . إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشر يكفيه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟ .

غرائز الناس

إذا أقبل إليك مقبل بوده فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له فإن الإنسان طُبع على ضرائب لؤم فمن شأنه أن يرحل عمن لصق به ويلصق بمن رحل عنه .

آفة الفقر

إذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً فاذا أذنب غيره ظنوه وكان للتهمة وسوء الظن موضعاً وليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب فإن كان شجاعا

سمى أهوج وإن كان جواداً سمى مفسداً وإن كان حليما سمى ضعيفاً وإن كان وقوراً سمى بليداً وإن كان لسناً سمى مهذاراً وإن كان صموتاً سمى عيياً .

المودة

المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطىء انقطاعها ومثل ذلك كمثل كوب الذهب الذى هو بطىء الانكسار هين الإصلاح ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً والكريم يمنح مودته عن لقية واحدة أو معرفة يوم واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة .

الحقد

مثل الحقد فى القلب إذا لم يجد محركا مثل الجمر المكنون إذا لم يجد حطباً فليس ينفك الحقد مطلعاً إلى العلل كما تبتغى النار الحطب فإذا وجد علة استعرَ فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شىء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح .

الحزم

الرجل ثلاثة حازم وأحزم منه وعاجز . فالحازم من إذا نزل به الأمر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شَعاعاً ولم تعىَ به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرج منه . وأحزم من هذا المقدامُ ذو العُدة الذى

يعرف الابتلاء قبل وقوعه فيعظمه إعظاماً ويحتال له حيلة حتى كأنه قد لزمه فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو من تردد وتمن وتوان حتى يهلك .

المودة الكاذبة

إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس وذات اليد . فالمتبادلون ذات النفس هم الأصفياء وأما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ومن كان يصنع المعروف ببعض منافع الدنيا فإنما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه .

أدب الحديث

لاتخلطنّ بالجد هزلا ولا بالهزل جداً فانك إن خلطتَ بالجد هزلا هجنته وإن خلطتَ بالهزل جداً كدرته، غير أنى قد علمتُ موطناً واحداً إن قدرتَ أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبتَ الرأى وظهرت على الأقران وذلك أن يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق.

الهوى

إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب لى هواك فخالفه فان أكثر الصواب فى خلاف الهوى .

الكمال الإنسانى

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما أعظمهُ عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد وكان خارجا من سلطان فرجه فلا يدعو إليه مؤونة ولا يستخف له رأياً ولا بدناً وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة أو منفعة وكان أكثر دهره صامتاً فاذا قال بذ(١) القائلين وكان يرى متضعفاً مستضعفاً فاذا جاء الجد فهو الليث عادياً وكان لايدخل فى دعوى ولا يَشرك فى مراء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضياً فهماً وشهوداً عدولا وكان لايلوم أحداً على ماقد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من الولى ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

---

(١) بذ : غلب .

الأقسام

إنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال إما مهانة يجدها فى نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه وإما عى بالكلام حتى يجعل الأيمان له حشواً ووصلا واما تهمة قدعرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يُقبل منه قول إلا بعد جهد اليمين وإما عبث فى القول أو إرسال اللسان على غير روية ولا تقدير .

أدب التربية

« لهارون الرشيد »

فى وصية له إلى مؤدب ولده .

يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك الا فى أوقاته وخذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه أو تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

الاقتصاد

« للبديع الهمذانى »(١)

وهو كتاب أرسله إلى أحد الوارثين .

وصلت رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزة رشد كأنه الغى . وقد مات الميت فليحى الحى ، فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك بالأمس . وقد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك . وقد مولك مما ألف بين سراه وسيره (٢). وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره . وسيعجم الشيطان عودك (٣) فإن استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحباب (٤) والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقداح (٥) . ولولا .

---

(١) بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ) : هو من أوائل الكتاب فى عصره وأغزرهم مادة فى اللغة والأدب ، وأحسن ما كتب مقاماته فهى أفضل من كل ما كتب الكتاب من المقامات بعدها .

(٢) مولك : جعلك ذا مال ، والسرى : المشى بالليل ، والسير : المشى بالنهار .

(٣) يعجم : يعض ، فى الأصل يقال : عجم عوده ، إذا عضه بأسنانه ليعرف شدته من لينه ، والمراد هنا سيختبرك الشيطان .

(٤) حباب الشراب : فقاقيعه التى تعلو سطحه .

(٥) القداح : سهام الميسر ، ويريد هنا لعب القمار .

الاستعمال ، لما أريد المال . فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطربا للكاس ، وغداً واحربا من الإفلاس . يامولاى ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل نقراً . وذلك المسموع من النادى هو اليوم فى الآذن زمر ، وغداً فى الأبواب سمر . والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة وإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عينك ، وتمتع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك . وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك لا ولكن قصداً بين الطريقتين ، وميلا عن الفريقين ، لامنع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ماهو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط ، وللمروءة قسم . فصل الرحم مااستطاعت ، وقدر إذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير (١) ، خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

---

(١) التقدير : التقتير .

أيها المحزون

« لمحمد بك المويلحى »

— ١ —

لا جدال فى أن الحزن من أشد أدواء النفس وأعظم أمراضها، فهو إذا نشب بأظفاره فى النفس لا يلبث أن يمزقها تمزيقاً ويشتتها تشتيتاً فترتبك على الإنسان معيشته وتضطرب عليه حياته ويؤثر حزنه عليه فى كل جزئية وكلية حتى يرى الدنيا فى عينه أظلم من الدجى وأضيق من سم الخياط وتكون نفسه كأنها سمكة الحبر فوق صفحة الماء تسود بما تمجه من جوفها كل مادنا منها ، والحزين يسود بياض عيشه بما يمجه عليه من الأحزان والأكدار ولهذا تراهم يشاكلون بين النفس الحزينة والبدن بما يلبسونه من ثياب الحداد . ولما كان داء الحزن داء يشتمل على النفس كلها وكان عصى العلاج أبى المراس وجب أن يعمد الحكيم فى علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المتنوعة كما يفعل الطبيب بالأمراض المستعصية فى البدن وأول شرط فى نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه فلا نفع لما نعرضه عليك أيها المحزون من علاج الأحزان إن لم تأخذ فيه بطول المواظبة على التدبير والتفكير وكثرة الإمعان وتكرار النظر والأخذ بالتمرن حتى يسرى فى النفس وتتغذى به . وإذا كان الإنسان قادراً بقوة التكرار

على أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية ما يدهش الألباب كالذى كان يحمل ثوراً على عاتقه ويعدو به أميالا فى أعياد آثينا وكالذى كان يلعب على ثمانى رقاع للشطرنج فى آن واحد وهو غائب عنها يلعب نوعا آخر من اللعب فى أندية أمريكا فما أولاه بأن يروض فكره ويمرنه على أحكام الفضيلة ويعوده العمل بها حتى تصل به إلى الغاية المقصودة من السعادة . ولكنك إذا قرأت ولم تتدبر ونظرت ولم تتبصر وحفظت ولم تعتبر لم تنتفع بكثرة المطالعات وطول المعالجات .

وأعلم أن البدن مرتبط بالنفس والنفس مرتبطة بالبدن وإن مرض النفس يؤثر على البدن فيمرض ومرض البدن يؤثر على النفس فيمرضها وقيل أن ندخل معك فى شرح شفاء النفس من أحزانها نبدأ بالكلام فى وجوب صحه البدن الذى تتوقف عليه صحة النفس . وغاية اجتهاد الحكيم الذى يرشد الإنسان إلى بلوغ السعادة أن تكون لك نفس سليمة فى جسم سليم . ويلزم لصحة البدن أن يجتنب الإنسان كل إفراط فى الشهوات وفى كل ما من شأنه أن يعقب اضطراباً فى الفكر وأن يعود الإنسان بدنه على الرياضة فى كل يوم ساعتين على الأقل فى الهواء النقى وأن يكثر من الاستحمام بالماء البارد وأن يتعهد إفراز الأخلاط الزائدة على القانون المطلوب وأن يكثر من الحركة فإن الحياة فى الحركة وإذا نظرت إلى البدن من داخله وجدت ما فيه من الأحشاء والأعضاء فى حركة مستديمة فترى القلب يقذف مجموع ما فى الجسم من الدم إلى

الأوعية الكبيرة والصغيرة فى ثمانى وعشرين ضربة من ضرباته وتجد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة البخار وتشاهد الأمعاء تنبسط وتنقبض . وكذلك فى الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص والإفراز فى آن واحـــد على الدوام وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات القلب وعند كل استنشاق للنفس فإذا ضعفت حركة البدن من ظاهره كما هى الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفه لم يتم التوازن بينها وبين الحركات التى فى باطنه ووقع البدن فى الاختلال لأن حركة الباطن تحتاج إلى المساعدة بحركة الظاهر والحركة فى الباطن تطلب الحركة فى الظاهر ليستقيم النظام ولا يختل فى البدن والنفس معاً ولا نذوق طعم الحياة ولا نصل إلى شىء من السعادة التى سخر لنا الخالق فى حياتنا إلا بهذا النظام . وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدره يغلى بالغيظ ويفور بالحقد فإذا دام على السكون لم تأمن عليه سوء العاقبة من ذلك الاختلال ولهذا فإنهم ينصحون الإنسان إذا غضب أن يأتى بحركة فى بدنه وفى الحديث الشريف (إذا غضب أحدكم فليتوضأ) وفى كلام أرسطو (فليستحم بالماء البارد) وترى الأشجار لا تسير سيرها الطبيعى فى النمو إذا لم تعرضها للهواء لتهتز أغصانها فتساعد الحركة فى ظاهرها حركة نموها فى باطنها .

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء والنظافة والحركة وسواها واجب والسير به على قانون الصحة متعين لسلامته وسلامة النفس معه . ولا تعجب للإسهاب منا فى هذا الباب فإنه أصل من أصول معالجة النفس

ومما يدلك عليه أنك ترى الشيء فى حال انتظام صحتك فترتاح إليه نفسك وتستلذه ولكنها إذا رأته فى حالة من حالات الجسم المعتلة انقبضت منه وكرهته والشيء واحد بذاته لم يتغير وإنما تغير نظام النفس باختلال نظام الجسم . ومن هنا تتضح لك صحة القاعدة المشهورة بأن الأشياء الخارجة عن الإنسان لا قيمة لها فى ذاتها وأن طريقة نظرنا إليه وكيفية قبولنا إياها هى التى تلبسها لباس الحسن أو القبح .

وقد أجمع جلة علماء الأخلاق على أن تسعة أعشار السعادة للإنسان قائمة على الاعتدال صحة البدن وحسن المحافظة عليه وأن سلطانه على النفس عظيم تعتل باعتلاله وتصح بصحته . ونرى كثيراً من أمراض البدن تؤثر على الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها على ظهر البدن فيختل التصور ويتبلد الذهن وتتغير الطباع . ومن الجنون المحض وسوء عمل الإنسان لنفسه وتعمد الإيذاء لنفسه والضرر بذاته أن يهمل أمر بدنه ويشتغل عنه بسفاسف الأمور وينهكه فى سبيل المطالب الباطلة ويجعله فدية للسعى وراء المال والجاه والعلم العقيم والمجد الزائل واللذة الوقتية .

— ٢ —

اعلم أن مانحن بصدده من معالجة الأحزان ينقسم إلى قسمين . معرفة حقائق الأشياء فى ذاتها ومعرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة فأخطأت كنه الحقيقة فانقلبت بنا انقلاباً أورثنا الشقاء والبلاء ورمانا فى الأحزان والأكدار . ونتيجة ارتفاع الأحزان هى حصول

راحة الحياة فقد تعين علينا البحث أولا عن ماهية هذه الراحة فى معيشتنا وعن ماهية الألم وعن حقيقة الخير وحقيقة الشر وهل هذه الدار دار ألم وشقاء خالية من أسباب السعادة والهناء أم فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول :

إن الله جلت قدرته لم يرد بمخلوقاته شراً فى هذه الدنيا ولم يجعلها مستقراً للألم ومطمورة للعذاب وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً بل جعلها لأوليائه دار سعادة وهناء فانية ، يرحلون منها إلى دار سعادة وهناء باقية . قال الله تعالى (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وإنما نحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ونسود عيشنا بأيدينا وما فسد الزمان وإنما نحن الفاسدون .

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

اشتبهت علينا الأمور واختلطت الأشياء وأخطأنا الحكم وأخذنا بتضليل المضلين وأباطيل المبطلين فصرنا لانفرق بين الطيب والخبيث والخير والشر والألم واللذة والضار والنافع بل أخذنا هذا مكان ذلك وصبغنا الضد بصبغة ضده فحولناه عن أصله فوقعنا فى شر العذاب ومن خالف الحقيقة يعنى فطرة الله التى فطر الناس عليها وخرج عنها فأجدر به ألا يلقى فى دنياه راحة ولا فى حياته سعادة .

وكما أنه لايمكن للطبيب أن يعرف علاج الأمراض وشفاءها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو منه كذلك لا بد لحكيم النفوس من تشريح الأفكار ومعرفة الخطأ والصواب فيها لنظام صحة النفس .

وقد مضى بنا الكلام عن تأثير اختلال صحة الجسم فى الفكر وما يجب الأخذ به فى تدبير صحة البدن ونتكلم الآن عن تأثير اختلال صحة النفس فى الفكر والجسم معاً وما الواجب أن تأخذ نفسك به فى تدبير الصحة الروحانية فاعلم أن اختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ فى الحكم على حقائق الأشياء والغلط فى تقديرها وضعف التمييز بين الصحيح والفاسد وصحة التمييز وتوازن الفكر ومعرفة الأشياء فى ذاتها مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم هو ما نسميه عقلا وهو أحد الأركان الأربعة للفضيلة التى لاتنال السعادة بدونها .

وقبل أن ندخل فى بيان حقائق الأشياء التى غلب عليها وهم الناس فاعتبروا الضار منها نافعاً والنافع ضارا يلزم لنا الكلام عن هذه السعادة المطلوبة من الحياة وهذا الغرض الذى اشتغل به الفلاسفة منذ الدهر الأول وذهبوا فيه مذاهب شتى واختلفوا بينهم اختلافاً بيناً دعا إليه حب الجدل وميل كل واحد منهم إلى الانتصار لرأيه حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا للسعادة العظمى مائتين وتسعين وجهاً كل واحد منها يختلف عن الآخر . والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة أحدهما أن سعادة الحياة هى ذات الفضيلة وأنه ينبغى للإنسان أن يسعى إليها بكل وسيلة سواء وصل إليها من طريق الألم أو من طريق اللذة وثانيهما أن السعادة العظمى هى فى اللذة يبلغها الإنسان من طريق الفضيلة ـ هنا واسطة وهناك غاية ـ ومن تأمل فى هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية

إننا إذا تأملنا فى أطوار كل ذى روح وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته فى الوجود ويميل بطبعه إلى التمتع ويجدها خيراً عظيماً ثم هو ينفر من الألم ويتقيه ويسعى جهده فى دفعه عنه ويراه من أكبر الشرور عليه . هذا فى حالة صحة الحكم الذى فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفكر وفساده . ولا محل هنا لتعدد البراهين وطول الجدال فالأمر محسوس لانزاع فيه وما كان محسوساً لم يحتج إلى برهان والفرق ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة إلى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج وبين عدم الاحتياج لغير الشرح والوصف فى بسطها والحس هو الحاكم الأول على الإنسان فى جميع أحكامه فلو نزعناه عنه لم يبق لديه شىء من قوة الحكم ولم يدرك التميز بين ما هو موافق للطبيعة وما هو مخالف لها .

واعلم أنه لايوجد فى العالم من يحتقر اللذة ويكرهها وينفر عنها لأنها لذة فى ذاتها بل لأنه قد ينتج عنها الألم لمن لم يعدلها ويأخذ فيها بحسب أحكام الفضيلة كما أنها لايوجد إنسان يحب الألم ويبحث عنه للوقوع فيه لكونه ألما فى ذاته بل لأنه قد ينتج عنه لذة . فترى الإنسان يحتمل كثيراً من الآلام لأجل أن يتوصل بها إلى نتيجة نافعة ، وأى الرجلين يكون فى حكم العقل ملوماً ؟ أذلك الذى يبحث عن اللذة التى لاضرر فى عاقبتها أم ذلك الذى يبحث عن الألم الذى لاتكون فى عاقبته لذة ؟ لاشك أننا نلوم كل من غرته جاذبة اللذة الوقتية فعمى عما يلحقها من الآلام والأكدار التى تنتج للنفس عن استسلامها فى

قيادة الشهوات كما أننا نلوم أولئك الذين تذهب بهم رخاوتهم وترفهم إلى إتقاء الألم بإخلال القيام بالواجب عليهم . وشأن العاقل فى اللذة أنه إذا كان حرا فى تناولها ولم يكن له مانع عنها أن يتمتع بها ويتخلص من الآلام ولكن إذا اعترضه فى هذه الأثناء واجب من الواجبات الاجتماعية وضرورة من ضروريات نظام المعايش وجب عليه أن يرفض لذته ويتقدم لتحمل التعب والألم فإن رفض اللذات العظيمة واحتمال الآلام الخفيفة لدفع الآلام الشديدة وهو مايقضى به العقل على الإنسان ويكون عقله ميزاناً يزن به الراجح من المرجوح وليست اللذة هنا بالمعنى المشهور بين الناس بل هى ما يلائم الجسم والنفس ويصل بهما إلى سعادة الحياة من طريق الفضيلة كما سيأتى الكلام فى تتمة تعريفها .

— ٣ —

إن اللذة الكاملة التى ننشدها من طريق الفضيلة ونجتهد فى تعريفها لك ليست هى ذلك الإحساس الذى نحس به فى أثناء سد الحاجة بل هى الحالة التى يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم وبعد إزالة الألم فلا يقال للجائع وهو يلتقم طعامه لقمة بعد لقمة أنه قد بلغ اللذة وإنما يبلغها عند الانتهاء من الطعام لأنه فى أثناء ذلك سائر فى طريق رفع الألم لم يصل إلى غايته ولم يبلغها إلا بالشبع الذى يتناول الطعام لأجله فاللذة إذاً فى تمام رفع الألم لا فى مباشرة رفعه لأنها فى مباشرة رفعه غير تامة واللذة التامة هى الراحة التى يجدها الجائع عند الشبع والعطشان عند الارتواء والسهران عقب المنام ولكن الناس بمعزل عن معرفة

قدر هذه اللذة التى هى سلامة الجسم من الألم والنفس من الاضطراب ومن جهلهم بما أنهم لا يدركون ماهم فيه من تلك الراحة إلا إذا زالت عنهم ولا يتمتعون بها وهم فيها ولا يتوهمونها إلا فى أثناء المسير إليها فترى صاحب الجسم السليم من كل علة لا يدرك أنه فى أعظم لذة من الصحة إلا إذا حل به مرض من الأمراض يصرف عنه الحالة التى كان عليها من الراحة فإذا تدرج فى أدوار النقاهة من ذلك المرض توهم فيها لذة وإنما حقيقة اللذة هى الرجوع إلى حالته الأولى التى كان غافلا عنها . وكذلك لا تكون الراحة للمقيد فى الحديد عندفك القيود عنه بل عند ما يرجع جسمه إلى الحالة التى كان عليها قبل وضع رجله فى القيدوهذ الوهم من أكبر الأسباب التى سودت حياة الناس بالأحزان ، وجعلتهم يعتبرون أنفسهم فى شقاء وهم فى نعيم ، ويرون أنفسهم فى نعيم وهم فى شقاء غافلين عن نعمة تلك الراحة التى هى منتهى السعادة والتى قيل فيها (ليس للراحة قيمة) فهى فوق كل قيمة فى الدنيا .

فقد تقرر إذاً أن المسافة التى يغيب فيها الألم لا المسافة التى يرتفع فى أثنائها هى اللذة المقصودة لدى الحكماء . والعاقل لا يمتنع عليه أن يدرك الراحة فى حياته على كل حال ولو كان واقعاً فى الألم فإن الألم إن كان طويل المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة وإن كان شديداً كان قصير المدة لسرعة الخلاص منه . فالذى يهون على نفسه تحمل مالا بد منه من الآلام فى هذه الحياة على موجب هذه القاعدة إما

بتحملها والتمتع براحة فتراتها فى حالة خفتها أو بترقب الخلاص منها فى حالة شدتها هو من يملك راحة الحياة وسعادة الدنيا .

وهذه الراحة هى التى يتعلق الإنسان بذات الفضيلة ولا يرغب فيها إلا للوصول إليها كما أنه لايتعلق بصناعة الطب لذات الطب بل للتوصل به إلى الصحة التى تنشأ عنه كما أن صناعة الملاحة لا تطلب لذاتها ولكن للانتفاع بها فى السلامة . والحكمة التى هى صناعة الحياة إذا لم يكن منها راحة للإنسان فى حياته فهى غير مرغوب فيها ولا مطلوبة لذاتها .

هذا هو تعريف اللذة الذى يخطىء الناس فيه ولا يدركون حقيقته ولا وصول إليه إلا بالحكمة التى تكشف غطاء الأوهام وتمكن الإنسان من الحكم الصحيح على أمور الحياة وتنزع عنه غشاوة الغباوة التى استحكمت فيه حتى صار يتخوف مما لاخوف منه ويحزن مما لاحزن فيه وهى التى ترشده إلى تقليل الرغبات وترفع عنه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق وتقليدهم على العمى فتنطفىء منه نار الطمع والشره التى أودت بالأفراد والجماعات وبالأمم بما ولدته فيهم من الأحقاد والأضغان وما أسعرته من نيران الفتن والحروب فجعلت الناس فى ألم دائم لايجدون منه مخلصاً . فالعاقل هو الذى ينفى عنه أسباب الخوف ويقلل من الرغبات ويرضى بالكفاف ويقصر همه على ما تقضى به الحاجة الضرورية أو الطبيعية فلا يتولد فيه الشره والطمع الذى هو مجلبة الأحزان والآلام ومنبع

المخاوف والشرور وقد ألمّ بذلك أحد الشعراء فى قوله :

مرحباً بالكفاف يأتى عفياً وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرىء يشمر فى الجمع لعيش مشمر للفناء
يحسب الحظ كله فى يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس فى آجل النعيم له حظ وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقى وإن كا ن يرى أنه من السعداء
حسب ذى إربة ورأى جلى نظرت عينه بلا غلواء
صحة الجسم والجوارح والعر ض وإحراز مسكة الحوباء

وقد آن أن نبين غلط الناس فى حكمهم على الأشياء واعتبارهم الخير منها شراً والشر خيراً . وأكبر خطأ لهم نراه خوفهم وفرقهم من الموت الذى هو رافع الأسقام وآخر الآلام فيعدونه أكبر الشرور وأعظم الخطوب وسيأتيك الكلام عما يماثل ذلك من حقائق الأشياء.

— ٤ —

ليس شىء من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة (إن كل شىء يقبل الشك) حتى قولى هذا (إن كل شىء يقبل الشك) ومن بين الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون فى كل شىء حتى فى وجود ذواتهم ويعتبرون الحياة بما فيها كرؤيا فى المنام .

ولكن مهما وقع الشك فى أمور الحياة فانه يوجد أمر واقع لا دخل

للشك فيه وهو الموت . ومن عجيب أمر الإنسان أن يعتبر مايراه من أباطيل الحياة كالحقائق ويعتقد فى ماالشك فيه بين واضح إلا الموت فكأنه يشك فيه .

والموت لا يخفى على أحد ممن ترى وكأنه يخفى

ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم بالموت وكان من هم الفلاسفة كذلك تفكيرهم به وبسط الأقوال فى بطلان الحياة وحقيقة الموت وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها بينهم مجرى العادة إلى اليوم فى وجوب تذكر الموت فى كل حين فاذا ولد الطفل عندهم صنفوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يجددونه فى كل شهر على مقدار النمو فى جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحملوه عليه يرشدون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متواصلان وأن الإنسان يمشى فى هذه الدنيا وكأنه عابر جسر فى طريق عن يمينه فيها الموت وعن شماله الحياة وأنه كما يدب بنموه فى الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات فى آن واحد وأنه لابد للعاقل أن يحضره ذكر الحياة وأن اليقين فى أعواد النعش والشك فى أساطين القصر . فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء فى أطناب البيت ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر . والناس ينقسمون بالنظر إلى ذكرى الموت ثلاثة

أقسام قسم لايتذكر الموت ولا يأتى له خاطر ولا يلتفت اليه كأنه قد رسخ فى ذهنه أن لافناه مع البقاء ولا هلاك مع الوجود ولا يحس بهذه الحقيقة أم الحقائق فى الدنيا إلا عند المشاهدة والعيان ولا يذكر إلا ريثما تنقضى عنه المشاهدة كأن يشتد به مرض فيتذكر الموت فاذا قام من مرضه قام وهو لا يتذكر أثراً لتلك الحقيقة وإذا شاهد الموت فى أهله وجيرانه لم يبقَ ذكره إلا ريثما يطرأ عليه شغل ما من مشاغل الحياة فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن بعض الناس أن هذا الذهول راحة من التفكر فى الموت الذى هو عندهم شر من الشرور والحقيقة أن فى هذه المسافات الوجيزة التى يتذكر الذاهل فيها الموت عند اشتداد المرض عليه أو عند موت أحد من أهله وأصحابه من أنواع الجزع والفزع مالانقاس آلامه بآلام الحياة كلها ويكون هذا التذكر لديه بمنزلة زلزلة تهدم فى لحظة جميع مابناه فى رأسه من الآمال ومازخرفه من الأمانى أو هو نفخة الصور تذهب بلبه وربما أثر ذلك فى أعضائه وجوارحه فجعله ثانى صاحبه أو قريبه فى القبر وقد سمعنا من هذه الحوادث شيئاً كثيراً . ومن شدة مايصيب أهل هذا القسم من الفزع والوجل تراهم أكثر الناس حزناً عند فقد فقيد لهم لا أسفاً عليه ولكن لحزنهم على أنفسهم بتذكر الموت وهلعهم من أن يسرى عليهم ما يسرى على من بجانبهم وتجدهم أشد الناس اندهاشاً واستغراباً إذا قلت لهم (مات فلان من أصحابكم) كأنك أخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه فهم يبادرونك بقولهم (وكيف مات) ؟

لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت ولكن عن الموت نفسه ولو قلت لهم إن فلاناً طار فى الجو لما وقعوا فى الاستغراب وقوعهم فيه عند الخبر بموته . ومن رأيهم أنهم يعملون كل مافى الوسع لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت ويدأبون فى محو المذكرات به وأعرف صاحباً لى كان إذا قرأ (بانت سعاد) أغفل منها قول سعد فيها :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

وأعرف آخر لا يمشى فى جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا ويهرب ببصره عنها ويستعيذ بالله منها ، ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى لا تذكره جدرانه بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت إحدهم صورة جمجمة من ذهب لبشع منها واستنكرها ولا أبالغ فى بعضهم إن قلت إنه ينبذها ويرفضها وربما عاداك لذلك وسخط عليك لاعتقاده أنك قصدت به سوءا فى تذكيره بهذا الشر العظيم والأمر الفظيع حتى لقد صارت تلك الجمجمة التى بقيت فى محافل الماسون من آثار آبائهم الأولين فى وجوب تذكير الموت والتفكر فيه بين أيديهم اليوم آلة من آلات الإرهاب والتخويف يمتحنون عليها شجاعة المنضمين إليهم ولو بحثت فى رأس الماسونى الجديد عن أثر ما قاساه فى ليلة دخوله من تصنيعهم فى التهويل والتخويف لم تجد باقياً منه فى هذه الرأس إلا تلك الجمجمة . وكان فى مصر رجل عالم من أكبر العلماء كان يجيب من يدعوه من الأمراء والكبراء لغسل من يعز عليهم موته تبركا به فكان مع سعة

علمه ودماثة أخلاقه ونظافة ثيابه ورقة شمائله إذا دخل مجلساً ما من مجالس العظماء انقبض الجميع وتسلسَلَ الواحد فى أثر الآخر وما ذاك إلا من تخوفهم بأن يتذكروا ماكان يباشره أحياناً من القيام بغسل الموتى . وأمامنا اليوم كبير فى الكبراء قد تهدمت آبائه وأجداده الذين يعيش فى كنف مجدهم وشرف نسبتهم ويرى نفسه فى منتهى السيادة والشرف بالاتصال بحبل تلك الرفات فهو إلى اليوم يفزع ممن يذكره ببناء المقبرة المنهدم ويستهول على نفسه أن يزور المقبرة يوماً لينظر فى وجوه ترميمها . ولضرب الأمثال فى هـذا الباب مجال متسع لا تستوعبه الرسائل والكتب ويكفى للإنسان أن ينظر إلى من حوله فى كل ساعة من كل يوم فيرى الغريب العجيب من الشك فى اليقين والارتياب فى الواقع . وسيأتى الكلام بعد عن القسمين الآخرين .

— ٥ —

واعلم أن أهل القسم الثانى من الناس بالنسبة إلى ذكرى الموت هم أولئك الذين تراهم يخشونه دواماً ويخافونه أبداً ويتولاهم الرعب منه فى كل حين ويترقبون وقوعه فى كل آن ويعتبرونه هازم اللذات ومقوض بناء السعادة . وأشد ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم وانتقلوا الى أوقات فراغهم وصفائهم فيكدرون عليهم تلك اللحظات التى يختلسونها من أيدى المشاغل اختلاساً ويسودون بياض عيشهم بالتخويف الدائم من انتقاله والترقب لقرب زواله . وما أشد ما يكون

عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة بعد النعمة من متاع الدنيا وزينة الحياة وكلما آتاهم الله فضلا ذهلوا عن التمتع به ونسوا الشكر عليه فلا يبصر أحدهم ولدا، إلا ويتغلب على فكره التخوف من فقده والحذر من هلاكه أو الترحل قبله ولا يتمتع به، ولا ينظر إلى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف إلا نظر المغشى عليه من كثرة مايخشاه من حرمانه منه بالانصراف عنه وماعساه يكون من حاله بعد زواله وانتقاله . لايزالون هكذا فى حال القلق والاضطراب والجزع والفزع والرعب والكدر فتنقبض منهم النفوس وتطرق الرؤوس وتسقط عليهم الهموم كسفاً من العذاب يتململون منه تململ السليم ويئنون تحته أنين المصفد فى القيود (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون، صم بكم عمى فهم لايرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت) .

— ٦ —

وترى أهل هذا القسم الثانى الذين يذكرون الموت ويخافونه ويحرصون على الحياة ويحبونها يقضون أوقاتهم اشتغالا بالتوقى من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك ولا يكتفون فى ذلك بما يدخل فى طوقهم الاحتراس منه بل ينصرف همهم إلى دفع ما لا دافع له من

الأقضية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة كالطواعين والأوبئة وأمراض العدوى وكالزلازل والصواعق والعواصف ومنهم من لا يركب البحر خشية الغرق ولا يسافر فى البر خوف مصادمة القطرات ومنهم من يقوم من منامه مرة بعد مرة فيدور فى أنحاء البيت كالعسس يتفقد أثاث الحجرات ورياشها ليطمئن عليها أن يتصل بها شىء من أسباب الحريق فإذا أمن المسكين من ذلك كله واستغرق فى نومه برهة من ليله ورأى فى الرؤيا أن أحد الأموات من أقاربه وأصحابه دنا منه أو سلم عليه أو رحب به أو دعاه إليه قام من منامه فى أشد آلام الفزع كالذى يتخبطه الشيطان من المس لا يهدأ له بال ولا يستقر به قرار أينما وجه وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل وتصديق الرؤيا ومن غريب المتناقضات أنه مع هذا الترقب والتوجس الذى هم فيه إذا ذكرت فى مجالسهم اسم الموت أو تلوت عليهم (إنك ميت وإنهم ميتون) لووا أعناقهم وتقلصت شفاههم وكادت تقف حركات قلوبهم من الكدر والغيظ ونقموا عليك أنك ذكرتهم بما لا يغفلون عن ذكره ليلهم ونهارهم . ويستبعدون الموت وينكرونه عليك فلا يكادون يصدقون بموت الفجأة فاذا أخبرتهم بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون لذلك العلل ويتمحلون الأسباب وينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به وإذا أخبرتهم بموت شاب فى غضارة عمره وغضاضة سنه زادوه ماشاءوا من عدد السنين فى عمره كما أولع الناس باخفاء حقيقة أعمارهم والاجتهاد دائماً فى تنقيص سنيها ليغشوا أنفسهم ويطرحوا

من فكرهم إمكان المفاجأة من هذا العدو الأحمر فى حين الغرة وفى مقتبل العمر وليطمئنوا على التراخى فى الأجل .

أما سيرتهم وخطبهم فى التحرز على أجسامهم والاحتراس على أبدانهم فى ليلهم ونهارهم أن يعتريها اعتلال أو يصيبها اختلال فهم يتغالون فى ذلك إلى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون على أنفسهم من هبوب النسيم وحرارة الضياء ويحرمون أنفسهم لذة الطعام والشراب ويتوهمون فى كل لقمة تخمة وفى كل جرعة غصة ويتخيرون لهم أبواباً خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم وتؤثر شدة الهواجس والوساوس على أرواحهم فتنتهى بسوء التأثير على أجسامهم فتضعف. وحينئذ يأخذون فى استعمال الأدوية المختلفة لتقويتها فتزداد بها ضعفاً. ولا يزالون على هذا التخوف والتحرس والتوهم وطول التداوى لغير علة حتى ينتقل الوهم إلى الحقيقة وتحل بهم الأمراض التى أعدوا أنفسهم لها وأدنوها نحوهم بأثر التخوف منها والمداومة على تناول تلك الأدوية الشديدة التى تنهك قوى الجسم وتفسد المعدة وتخل نظام التركيب فيستلمهم الطبيب بجهله وطمعه فإذا لم تنته به براعته إلى إراحتهم بالموت عاشوا عيشة كلها آلام وأوصاب إلى أن يقعوا فى الموت من خوف الموت ويذهبوا إلى حال سبيلهم لا هم تمتعوا بالحياة ولا هم نجوا من الموت ولا تستبعد أيها القارىء أن أكثر هذا القسم يحدثون الأمراض لأنفسهم بأنفسهم ويعجلون آيامهم بأيديهم فإن للوهم والخوف سلطاناً

على النفس والجسم لايوازيه سلطان فى العالم وله أعظم أثر فى فساد صحة الإنسان فيختل به نظام الجسم ويؤدى به إلى الهلاك ولذلك لانرى بدآ من إسهاب القول فيه وشرح أثره للانتباه إلى طرحه وإضعاف سلطانه فإن فى الإقامة عليه والاسترسال فيه شقاء الروح وسقم الجسم ومنه تسيل ينابيع الأحزان والأكدار وتنفجر عيون الغموم والهموم .

— ٧ —

تقدم بك القول فى شدة تأثير الخوف والوهم وسوء فعله فى النفس والجسم وأنه إذا ألقى الإنسان قياده إليه ذهب به فى وادى العذاب يميناً وشمالا وأنه إذا تملك النفس نشبت به فى الجسم مخالب العلل والأسقام حتى تودى به إلى الهلاك والفناء . وقد أجمع جلة العلماء من أطباء العصر الحاضر بعد كشفهم وبحثهم على أن مجرد التخوف والتوهم يحدث أمراضاً فى البدن لم يكن لها من سبب سواه فى الباطن والظاهر . ولا محل هنا للشرح والبيان فى أبحاثهم العلمية التشريحية وإنما نذكر من ذلك مايستشهدون به على قواعد العلم من براهين الحوادث والوقائع التى شاهدوها بأعينهم ومارسوها بأنفسهم مما لايقبل الشبهة ولا يدانيه الريب فمن ذلك ماذكره من مشاهداتهم .

باشر أحد الأطباء تشريح ميت مات بداء الكلب فاعتراه من ذلك

تخوف شديد على نفسه من تعلق العدوى به وانتقال جراثيم المرض إليه واشتد به توهمه فأخل بنظام جسده فتولاه الأرق وفقد شهوة الطعام وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل وعاف الشرب فكان إذا اشتد به العطش شرب الماء قسراً عنه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ثم اشتد به الحال فهام على وجهه فى الطرق ضالا مختبلا من هول ماهو فيه . وأدرك بعض أصحابه من أهل صناعته حقيقة حالته وأن بلاءه هو من أثر الخوف والوهم وسوء التصور فأعملوا جهدهم فى تخفيف مابه وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها وما زالوا به حتى أقنعوه بأنه سليم الجسم من تلك العدوى وأن مابه هو من عمل التخوف والتوهم فأخذ ينسى بفضلهم تلك الفكرة القائمة به فزالت عنه تلك الحالة المعترضة وشفى منها شفاءاً تاما .

ومن الأمور المقررة التى لايكاد يأنس لها التصور أن مجرّد الخوف على ما اجتمعت عليه أقوال الأطباء يولد فى الجسم أعراضاً هى أعراض داء الكلب بذاتها حتى اعتقد أحد مشهوريهم أن الخوف هو سبب الكلب وليس سببه عقر الكلاب ولعابها . ومما رواه بعضهم أن كلباً مسعراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر فى يومه الى أمريكا فسافر اليها وغاب خبره عن أهله مدة طويلة فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة غفل أحدهم فأخبره بأن أخاه مات من أثر عض الكلب فوقع تأثير ذلك عليه كالصاعقة ورقد مريضاً وظهرت

أعراض داء الكلب فى أقصى حدتها ولم يزل كذلك حتى مات .

وكتب الأطباء مشحونة بكثير من مثل هذه الحوادث شاهدة بأن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة إلا من إخبار من أخبرهم بأن الكلب الذى عضهم كان مسعراً ولا يمكن للطبيب أن يميز بين الإصابة بالكلب الناشئة عن الوسواس والإصابة الناشئة عن عدوى الداء . وكم من مرة أنقذ فيها الأطباء كثيراً من الناس وهم على شفار الموت بحسن مهارتهم فى تسلط نفوسهم على نفوس المرضى وتمكنهم من إقناعهم وإزاحة غمة الوسوسة والتخوف من رؤوسهم . وقد دعى أحد الأطباء لمعالجة أحد المصابين بالكلب بعد أن يئس من شفائه جميع رفقائه فأخذ يفحصه فحصا دقيقا ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فمه ليحقق له خلوه من ذلك المرض فما لبث المريض أن شفى من أثر تلك القبلة التى اعتقد بها أن الطبيب لم يقبله إياها إلا وهو آمن على نفسه من وجود ذلك المرض واتصال عدواه به[1] .

وبالجملة فإن أثر التخوف والوهم على النفس من أشد ما يقاسيه الإنسان من أنواع الآلام فى نفسه . ويمكن لكل إنسان أن يبعده عنه بقليل من التثبت وسلامه الإقناع والتباعد بالفكر عن التدرج

---

(١) حذفت هنا حكايات لا تخرج فى معناها عن هذه الحكاية .

فى الهواجس وتحكيم سلطان الخيالات الباطلة عليه . ومن سلم قيادة فكره إلى الأوهام والخيالات فسدت عليه عيشته وعاش فى مالا يوصف من الآلام والأكدار يرى الموت فى كل لفتة . والحتف فى كل لحظة .

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

فهرس

صفحة

٢ هدية الكتاب
٣ مقدمة الكتاب
١٠ باب الفصاحة والبيان
— (قسم المنظوم)
— قوة الحجة لأعرابى
١١ تهذيب الشعر لعدى بن الرقاع « مع ترجمته »
— وصف القلم لأبى تمام « مع ترجمته »
١٣ تهذيب الشعر للبحترى « مع ترجمته »
١٤ سحر البيان لأبى تمام « مع ترجمته »
— وصف قصيدة لابن الرومى « مع ترجمته »
١٥ سيرورة الشعر للمتنبى « مع ترجمته »
— سهولة الشعر لبشار بن برد « مع ترجمته »

صفحة

١٦ شعر ڤيكتور هيجو لحافظ إبراهيم « مع ترجمته »
١٧ ديوان الفريد دى موسيه لخليل مطران « مع ترجمته »
١٨ (قسم المنثور)
— صناعة الإنشاء لابن المعتمر « مع ترجمته »
٢٠ الإرتاج لأحد الأمراء العباسيين
٢١ فصاحة رسول الله للجاحظ « مع ترجمته »
٢٢ فضل البيان للجاحظ أيضاً
٢٣ مقامات الكلام لبعض الكتاب المتقدمين
٢٤ الأديب غير الكاتب للمبرد « مع ترجمته »
٢٥ الفصاحة فى الأسلوب لأبى هلال العسكرى « مع ترجمته »

صفحة

٢٦ دعوى الأدب للآمدى « مع ترجمته »

٣٠ مناظرة بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى للآمدى أيضاً

٣٧ فتنة القول للجاحظ

— فصاحة جعفر بن يحيى لبعض الكتاب المتقدمين

٣٨ حقيقة البيان لبعض الكتاب المتقدمين

٣٩ فصاحة القرآن للباقلانى « مع ترجمته »

٤٣ إعجاز القرآن للقاضى عياض « مع ترجمته »

٤٥ الشعراء المحدثون

٤٧ نظرات المنفلوطى لأحمد لطفى بك السيد « مع ترجمته »

٤٩ الشعر لأحد الأدباء المعاصرين

٥٩ كلمة فى التعريب لحافظ إبراهيم

٦٥ الشعراء المعاصرون لخليل مطران

صفحة

٧٦ اللغة والعصر للشيخ إبراهيم اليازجى « مع ترجمته »

٩٥ وصف شعر شكسبير تعريب محمد السباعى « مع ترجمته »

٩٧ الشعر لمصطفى الرافعى « مع ترجمته »

١٠٦ ماهية اللغة لسعادة أحمد فتحى باشا زغلول « مع ترجمته »

١١٥ حقيقة الشعر للأمير شكيب أرسلان « مع ترجمته »

١٢٠ مقابلة بين الشعر العربى والإفرنجى لنجيب الحداد « مع ترجمته »

١٣٩ نقد ديوان شوقى لمحمد بك المويلحى « مع ترجمته »

١٦٠ البيان لأحد الأدباء المعاصرين

١٦٨ الموازنة بين الشعراء للشيخ محمد المهدى « مع ترجمته »

١٧١ ضرورة التعريب للشيخ محمد الخضرى « مع ترجمته »

صفحة

١٧٧ أدوار الشعر العربى لأحد الأدباء المعاصرين

— ١٨٠ وصف كتاب النظرات لحافظ إبراهيم

١٨١ الإنشاء والعصر لابراهيم بك المويلحى « مع ترجمته »

١٨٨ نقد الدرة اليتيمة للشيخ إبراهيم اليازجى

* ١٩٦ جوهر الشعر لإبراهيم بك المويلحى

* ٢٠٠ وصف نهج البلاغة للشيخ محمد عبده « مع ترجمته »

٢٠٣ باب الأدب والحكمة

— (قسم المنظوم)

— الكرم لحاتم الطائى « مع ترجمته »

— الإيثار لحاتم الطائى أيضاً

٢٠٤ ذم الغيبة لكعب بن زهير « مع ترجمته »

— ذم الغيرة لبعض الشعراء المتقدمين

٢٠٥ فضل الأناة للقطامى « مع ترجمته »

صفحة

٢٩٦ السعادة لبعض الشعراء المتقدمين

— كرم الضيافة لبعض الشعراء المتقدمين

٢٠٧ التجلد لبعض الشعراء المتقدمين

— القناعة للعتابى « مع ترجمته »

٢٠٨ مكارم الأخلاق لبعض الشعراء المتقدمين

٢٠٩ الصفح والإغضاء للشريف الرضى « مع ترجمته »

٢١٠ أدب الحديث لأبى تمام

٢١١ الرياء لابن الرومى

— العفة للبلى الأخيلية « مع ترجمتها »

٢١٢ القناعة لابن الرومى

— القناعة لبعض الشعراء المتقدمين

٢١٣ حب البنين لبعض الشعراء المتقدمين

— كتمان السر لمسكين الدارمى « مع ترجمته »

صفحة

٢١٤ الشورى لبشار بن برد
٢١٥ المغفرة لأبى العتاهية
« مع ترجمته »
— اكرام النفس لابن مطير
« مع ترجمه »
٢١٦ السعادة النفسية لبشار
— الحرية لأبى تمام
— عاقبة الجهالة لأبى نواس
« مع ترجمته »
٢١٧ الصداقة الكاذبة لأبى تمام
— الثقة لبعض الشعراء المحدثين
— مكارم الأخلاق للشريف الرضى
٢١٨ القناعة لأبى تمام
— الصديق لأبى العتاهية
— كلمات فى الحكمة للمعرى
«مع ترجمته »
٢٢٤ الحلم لبعض الشعراء المتقدمين
— ألم الموت للمتنبى
٢٢٥ حب الحياة للمتنبى أيضا
— الشجاعة للمتنبى أيضا
— الأشرار حرب الأخيار لبعض الشعراء المتقدمين

صفحة

٢٢٦ تحين الفرصة لأبى العتاهية
— الإباء لبعض الشعراء المحدثين
— الحب المعتدل للشريف الرضى
٢٢٦ عزة النفس لبعض الشعراء المتقدمين
٢٢٧ كلمات لمحمود باشا سامى البارودى « مع ترجمته »
٢٢٨ شرور العالم لأحمد شوقى بك « مع ترجمته »
— كلمات لاسماعيل باشا صبرى « مع ترجمته »
٢٢٩ سجن الفضيلة لحافظ إبراهيم
٢٣٠ (قسم المنثور)
— وصايا حكمية من أعرابية لولدها
٢٣١ أدب الزوجة الأعرابية توصى ابنتها ليلة البناء بها
٢٣٢ كلمات فى الأخلاق لعلى بن أبى طالب « مع ترجمته »
٢٣٤ أدب الحاشية لأحد الأمراء العباسيين

صفحة

٢٣٥ كلمات فى الآداب لابن المقفع
« مع ترجمته »

٢٤٦ أدب التربية لهارون الرشيد

صفحة

٢٤٧ الاقتصاد للبديع الهمذانى
« مع ترجمته »

٢٤٩ أيها المحزون لمحمد بك المويلحى

AUC - LIBRARY

DATE DUE

A.U.C 20 NOV 1994	
A.U.C 17 DEC 1995	

1954

MAR

b.12465409
i.13822482

The American University in Cairo
Library
October 31, 1994
0 0 0 0 0 3 1 1 2 7 2